
بوحمد
للنشر والتوزيع
ضريبة
تشرف
رواية
ألفونس دياري
ترجمها عن الفرنسية
د. عبد الله عبد العاطي النجار

ضريبة شرف

ألفونس ديناري

ترجمها عن الفرنسية

د. باسم صابر ميخائيل



عنوان الكتاب:
ضريبة شرف
المؤلف:
ألفونس ديناري

المترجم:
د. باسم صابر ميخائيل
التصنيف العمري:
17+
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-706-00-7
رقم إذن الطباعة:
MC-10-01-0828148

الفصل الأول

في مدينةٍ تنام على كتف البحر وتستيقظ على صخب الموانئ، في نابولي التي تعجّ بشمسها الذهبية وأزقتها المتشابكة كأحلام الفقراء، وُلد فتى يُدعى "بيبو"، وطفلة تُدعى "جرجونة"، حيث جمع بينهما رحمٌ راقصة رحلت عن دنياهم باكراً، وتركت وراءها ظلّاً حزيناً من رائحة المسارح ودمعةٍ على خدّ الطفولة. رحلت الأم، وكانت الحياة لا تزال تكتسي براءةً في عيني بيبو الذي لم يتجاوز العاشرة، في حين أن جرجونة لم تكن سوى زهرة في عامها الخامس يانعة لم تُمسّها بعدُ رياح العناء.

ولم يمهلهما القدر طويلاً، إذ قذف بهما إلى ملجأٍ للفقراء من الأيتام، حيث نشآ معاً كغصنين وحيدين في أرض جدباء تحت سقفٍ تنخره الوحدة، وتشدّه من جوانبه الحاجة، فنبتت الطفولة على جفاف، وترعرعت بين دفاتر المدرسة ولُقيمات الشفقة إلى أن بلغا من العمر ما يجعل الأقدام تتسكع بلا هدى، تُفتّش عن رزقٍ بين الأزقّة، وتسعى في أرضٍ لا ترحم، كأنما الحياة أرادت أن تُنسيهما جراحها بالكبد والسُهاد.

عمل بيبو في كل صنعةٍ أُتيحت له، تنقّل من باب إلى باب، لكن الأبواب ظلّت موصدة، وكأن الحظ قد نذر له الخذلان، فلم يُمهله نجاحٌ ولا أقبل عليه رزق. غير أن يداً خفية أهدته موهبةً من نور، جمال خطّه الذي فاق الوصف، خطٌّ يأسر الناظرين، كأنّ الحروف فيه زهرٌ شفيف يُرسم بندى الصباح، أو نقشٌ على صفحة الماء. لم يعلم أحدُ كيف امتلك تلك الموهبة، ولا من أين استقاها، لكنها كانت فيه كالنبوغ الساكن، لا تفسير لها إلا أنها عطية إلهية، نبضة سرٍّ اختصه بها الغيب.

أما جرجونة، فكانت تبيع الزهور في طرقات المدينة، زهرةً بين الزهور، بطلةٍ بهيّة، وجمالٍ صادق لا يتوارى عن عين. وقد مضت بها السنون، وبدأت ملامح الأنوثة تتفتح فيها كما تتفتح الوردة أسفل ضوء الفجر، وحين بلغت الخامسة عشرة، ساقها القدر إلى حيث سارت أمها من قبل، فارتدت ثياب الراقصات، ومشت على خشبة المسرح بحثاً عن القوت، لا طرباً. غير أنّ قلبها لم يطمئن، وروحها لم تألف، فما لبثت إلا زمناً يسيراً حتى فارقت ذلك الدرب، لا تورّعاً ولا عفّة، بل لأن المهنة لم تُغنِها ولم تُشبع جوفها، فآثرت الانسحاب قبل أن يُمسّ من نقائها شيء. وقد انزاحت عنها الأضواء لتعود إلى ظلّ الحاجة، وليثقل العبء من جديد على كاهل بيبو الذي وجد نفسه مضطراً أن يشقى ليُعين نفسه وشقيقته، وقد أصبح وحده عماد البيت.

وفي لحظة من لطف الأقدار، شغر بيبو منصب صغير في قلم التسجيل بمجلس المدينة بأجرٍ لا يتجاوز الأربعين فرنكاً. كتب بيبو عريضةً يطلب بها الوظيفة، قدّمها بخطّه الساحر، فإذا بأعين الموظفين تنبهر، وإذا بالحروف تُفتح لهم القلوب كما تُفتح الأبواب، فلم يُبالوا بتراخيه ولا خموله، وأسندوا إليه الوظيفة، ثم ما لبث أن ارتقى إلى منصب رئيس القلم، وزاد راتبه إلى ستين فرنكاً، غير أن طبعه لم يتبدّل، ظلّ كسولاً، بارد الهمة، لا يُغادر فراشه إلا بصوت جرجونة، وقد امتلأت بالغضب والضيق.

ذات صباح، دفعته من نومه، وقد انعقد الحنق في صوتها:

– قُم! لقد أزف الظهر، وأنت لا تزال غارقاً في نومك!

نهض بتثاقل، تثاءب، تمطّى كمن يُكره على الحياة، وقال بتأفف:

– لِمَ أيقظتني؟ أهناك ما يستدعي؟ هل اشتعل البيت ناراً؟

فأجابته وقد ضاق بها الصبر:

– ليت النار تأكلك في فراشك! ألا تستحي من تخلّفك عن مكتبك؟ النهار يُشارف نهايته وأنت لم تبرح فراشك!

فقال ساخراً ببرودٍ لا تخطئه نبرةُ التهكّم:

– ما كنتُ لأُبالي بمكتب لا يمنحني سوى ستين فرنكاً، ولو تغيّبت عنه دهراً، فلن يُفلس المجلس البلدي!

نظرت إليه بقلقٍ اختلط بالغضب، وقالت:

– الستون فرنكاً، وإن قلّت، تكفينا. فماذا لو صرفوك؟ ماذا سيحلّ بنا؟ أي درب سنسلكه؟

فأجابها وهو يُطلق ضحكةً مريرة:
– الأمر بسيط، تعودين إلى الرقص، وفرقة "سان كارلو" لن تمانع في ضمّك إلى صفوفها.
نظرت إليه بثبات، وقالت، وكأن صوتها ينبع من قلبٍ أبيّ لا يعرف المساومة:
– لكنني أنا أمانع.
ارتدى بيبو ثيابه في فتور دون أن يُلقي لها نظرة، ثم سألها:
– هل أنتِ جادّة في اعتزال الملاهي؟
فأجابته بعينين تشعّ صدقاً لا مراء فيه، كنورٍ صافٍ لا يُكذّبه ظلام:
– أجل.
– فتاة جميلة مثلك لا يليق بها أن تتشبث بالفضيلة إلى ذلك الحد!
قالت، وعيناها تشعّان بصدقٍ لا شبهة فيه، ونبرتها تهزّ جدران الصمت من حولها:
– إن امتناعي عن الرقص في الملاهي ليس فضيلة، ولا أدّعي أنّي أترفّع عن الاتّجار بجمالي، فما العيب في أن يبيع المرء ما يملك؟ غير أني لا أرى في أولئك السُمار من يستحق أن أرقص لأجله، ولا في تلك الأضواء الوهمية ما يغري قلبي بالتنازل. أُفضّل ما نحن فيه من فاقةٍ وحرمان، على ذلك الارتزاق المبتذل الذي لا يُكسب إلا الذلّ، ولا يورث إلا خزي النفس.
وما إن غادر بيبو البيت حتى التقى عند العتبة برجلٍ نحيل تسنده عصاه، ويكاد ظله يتقدّمه، كأنّه يسير على خيوط الزمن المنفرطة. كان شيخاً قد شحب وجهه، وارتجف صوته، وتهاوت خطاه تهاوي الأطلال. لقد كان الدوق "دي لوكا"، بقايا مجدٍ انطفأ، ووميضة ماضٍ لا تزال تتردّد أصداؤها في أزقّة نابولي.
حياه بيبو بإيماءةٍ خفيفة، ثم أشار إليه قائلاً:
– ادخل، فلعلّك تجد عند جرجونة بقايا طعامٍ تردّ عنك الجوع.
ثم مضى يجرّ قدميه نحو عمله دون أن يلتفت تاركاً الشيخ خلفه، حيث ظل واقفاً كأثرٍ متداعٍ من عهدٍ بهيٍّ غابر.
كان الدوق، قبل أن تهوي به السنون، رجلاً من رجال البلاط، من أولئك الذين أحاطوا بالملك فرديناند الثاني، ثم من خاصّة رجالات ابنه فرانسوا الثاني، خدمهما بإخلاص، وبقي إلى جوار العرش حتى زال، وظلّ مرابطاً في قلعة "غايت" حتى سُلمت بعد حصارٍ طويل، فكان آخر من غادرها يودّع الملكة والملك، والكرامة تنزف من عينيه دماً.
ومع سقوط "آل بوربون"، انهار الدوق، وسُلبت منه نعمة الجاه، وذُبح مجده على أعتاب الوحدة الجديدة، فاختار الفقر بكبرياء على التزلّف لمملكةٍ لم يُؤمن بها. لم يشأ أن يبدّل ولاءه كما فعل غيره من النبلاء، بل ظلّ على عهده يقولها بكبرياء الأنفة:
– لقد جعلني ذلك الانقلاب شحّاذاً... وسأبقى شحاذاً حتى أموت.
وقد حرص، رغم شظف العيش، على الظهور بمظهر النبلاء، حيث ألف ارتداء ثيابه المعتقة، وصون كبرياءه كما يصون المرء قلبه. راح يسأل الناس، ولكن إن اجتمع له فرنكٌ واحد، كفّ عن السؤال، وعاد إلى حجرته الصغيرة الملتصقة بغرفة بيبو وجرجونة، كمن يعود إلى ملاذه الأخير.
ومع مرور الأيام، بردت الأيدي، وجفّت العطايا، ونسِيَه الناس كما تُنسى أوراق الخريف. ولولا قلبان رقيقان في جواره، لما بقي له في الحياة مأوى. تعلّق به بيبو وشقيقته، وأحبّاه، وشاطراه القوت القليل، وقاسماه الدفء النادر.
وقد بلغ الدوق الثمانين، فبدا شيخاً هرماً، غير أن عينيه ظلّتا تريان ما لا تراه أعين الشباب. كان يُنصت لحديث جرجونة كأنّه يُنصت إلى أنين الزمن، وذات مساء، أخذت جرجونة تشكو له الحال، والعين فيها تغصّ:
– لقد سئمتُ من هذه الحياة، ومن كانت مثلي لا تملك الصبر طويلاً على الفقر، ولا على هذا الدرب الموحش.
فنظر إليها بعينٍ خبِرت الجمال والضياع، وتأمّلها كما يتأمل الشاعر قصيدته الأولى، ثم قال:
– لقد صرتِ حسناء، والكون لا يتّسع لعينيكِ، إن الله لم يخلقكِ لهذا البؤس، لا لتكوني زهرة في الوحل. أنفاسكِ نبيلة، وخطوكِ يليق بالقصور لا بالأزقّة، فقامتكِ الهادئة، وشعركِ المنسدل، وجمالكِ الهادئ، كلها تُنبئ بأنكِ خُلقتِ لشيءٍ آخر،

أعلى وأرفع.
فقالت بتمردٍ ومرارة:
– فماذا أفعل؟ أخبرني، أأنتظر معجزة؟
أطرق الشيخ رأسه، وكأنّه يناجي غيباً لا يُرى، ثم تمتم بصوتٍ يكاد لا يُسمع:
– ويلٌ من هذا الحال... إن تمّ، كان بحقٍّ عجباً!
رفعت حاجبيها بذهول، وسألته:
– ما معنى ذلك؟ حدّثني.
فأجاب بعد صمتٍ ثقيل:
– إنّه خطرٌ داهم.
– خطر؟ أفصح، لا تُخفِ عني شيئاً.
فقال، وصوته ينهار ببطء:
– لا أخشى عليكِ سوى نسبكِ، هو الحاجز، هو السدّ الذي يحول دون ارتقائك، فلو كنتِ من سلالةٍ نبيلة لانفتح لكِ الباب إلى حياةٍ مغايرة.
قالت، وشعلة من الكبرياء تتوهّج في عينيها:
– إنني أُدعى جرجونة، وهذا الاسم وحده يكفيني، لا أحتاج لقباً لأكون.
فابتسم الشيخ، ابتسامة حزينة كأغنيةٍ بلا لحن، وقال:
– أجل، ولكنه لا يفتح الأبواب الموصدة، لا يمنحكِ مكاناً في عالمٍ لا يعترف إلا بالسلالات. لو كنتِ نبيلة الاسم كما أنتِ نبيلة النفس لتبدّل مصيركِ.
فقالت بسخريةٍ لاذعة:
– وهل تنبت الأنساب من التمنّي؟
فنهض الشيخ ببطء، كما لو أنه ينهض من غبار الماضي، وانحنى أمامها انحناءةً تنضح بالأصالة، ثم رفع عينيه إليها وقال، كمن يلقي بقلبه بين يديها:
– لا أطلب منكِ شيئاً يا جرجونة، فأنا شيخٌ في الثمانين، عرفتُ المجد وخبرتُ الزوال، وكنتُ يوماً ماركيز "كوريوولو"، وكونت "دي كاستيلو"، ودوق "دي لوكا"، وهذه الألقاب ورثتُها عن آبائي. فهل تُعجبكِ فكرة أن تصبحي كونتيسة؟ دوقة؟ هل ترغبين أن تكوني زوجتي؟
ظنّت جرجونة في بادئ الأمر أن الشيخ العجوز لا يقول إلا دعابة، فارتسمت على ثغرها بسمة خفيفة تمتزج بسخرية فاترة، لكن نبرة صوته الصافية، وعيناه العميقتان اللتان يسكب فيهما الزمن حِكمته، سرعان ما كشفتا لها أن ما ينطق به ليس من ضروب التسلية، بل من صميم الجد، ومن قلبٍ لم يعرف للهو سبيلاً. فرفعت رأسها، حدّقت فيه بنظرة صادقة، لا ظلّ فيها لتردّد، ثم نطقت بثبات:
– أتدري ماذا أفعل باسمك لو لُقبت به؟ ربما لو دُعيت به، لرفعني لا ليُسقطني، وقد اتخذه سلاحاً أقاتل به قسوة الزمان، غير أنني لا أريد لعاري أن يلتصق بك، ولا لهواني أن يجرّك إلى حضيضٍ لا تستحقه. فاترك اسمك لك يا سمو الدوق، فهو لي بلا معنى. إن اسمي هذا هو حصني وفخري، هو سلاحي واعتذاري، وإذا ما حاولتُ أن أغيّر قدري، عدتُ لا محالة إلى الطريق ذاته، إلى الدرب الذي مشت فيه أمي قبل أن أجيء إلى هذا العالم.
ثم سكتت للحظات، وقد لمعت عيناها بعزم يشعّ من أعماق الإيمان بالكرامة، وأضافت:
– لو حملتُ اسم "دوقة دي لوكا"، لما صرت شيئاً، بل فقدتُ نفسي، لا لأنني رقصت في ملهى، بل لأني بعت اسمي بلقب. سأغدو امرأة رخيصة، لا في نظر الناس، بل في مرآة ذاتي، وسأكون بذلك قد خذلت أمي، وأسأت إلى جيلي، وأحرقت شجرة الكرامة التي ما زالت تنمو في صدري.

وقعت كلماتها على قلب الشيخ كما تقع المطرقة على تمثالٍ من وهمٍ ظلّ عمره ينحته بيد الرجاء. ارتجف قلبه المثقل، وأحسّ كأن بصيرته تُغسل للمرة الأولى بنورٍ لم يعرفه من قبل. تهاوت في نفسه كل الألقاب، وباتت الفرسانية الحقة في عينيه لا في دماء النبلاء، بل في دمعةٍ تصون الكرامة، وفي كلمةٍ لا تبيع نفسها مهما اشتد الفقر وادلهمّ اليأس.

خجل من نفسه، وخيّم عليه صمت موجِع، كأن الندم يقرصه بأنياب الحنين، ثم اقترب منها برفق أبوي، وضمّها بين ذراعيه في عناقٍ لا يحمل شهوة، بل يمجّد النبل، كما لو أنه يحتضن إنسانية نادرة، روحاً صافية تجلّت له فجأة في هيئة امرأة. مضى إلى غرفته المجاورة يجرّ جسده المتعب كأنما يسير نحو نهايته. تهدّلت عيناه، وخفت بريقهما، وارتمى على فراشه الوحيد، حيث شعر أن الحياة قد ضاقت عليه، وأن الموت بات قريباً يتراءى له من بعيد، يلوّح له بظلاله الثقيلة.

لم تمرّ دقائق حتى عاد بيبو إلى البيت، فصاحت جرجونة من الداخل بصوتٍ فيه مزيج من الدهشة والتندّر:

– ما بك؟ أعدتَ بهذه السرعة؟ أما زلت تفرّق أموال الحكومة؟

لم ينبس ببنت شفة، بل أوصد الباب خلفه، واقترب منها بخطى متردّدة، ثقيلة، فحدّقت فيه بعينين تترقّبان عاصفة، وقالت بنبرة ساخرة تمتزج بالقلق:

– أأنت خائف من لصوص الطريق؟

أجابها بصوت خافت أخفى وراءه سرّاً أكبر مما توحي به كلماته:

– ربما...

ثم أخرج من جيبه حافظة عتيقة، وراح يضعها على الطاولة بتؤدة، كأنها كنز دفين، وقال:

– هنا ثلاثون مليوناً.

اتسعت عيناها، وتبدلت ملامح وجهها بذهول عجزت عن كبح جماحه، ثم ورددت كمن لا يصدق ما يسمع:

– ثلاثون مليوناً؟! أربني إياها!

لكنه أمسك ساعدها، وقال بهمس:

– الزمي الصمت... اخفضي صوتك لئلا يسمعنا أحد. هذه الثلاثون مليوناً ليست هنا، بل مدفونة... علينا أن نحفر لنُخرجها.

قالت متعجبة، وهي لم تزل غارقة في لغز حديثه:

– لم أفهم قصدك!

فابتسم، وقد تجلت في عينيه لمعة ذلك الذي أزاح الستار عن سرّ عظيم، ثم قال وهو يقلب أوراقاً مهترئة بيده:

– الأمر أغرب مما تتخيّلين... ما سأطلعك عليه ليس وهْماً، بل حقيقة بدأت برسالة وصلت إليّ، أنا، بصفتي رئيس مكتب السجلات المدنية في نابولي.

ثم جلس، وكأنّه يستعد لرواية أسطورة انبعثت من عمق التاريخ، وأردف يقول:

– تلقّيتُ خطاباً من رجل في باريس يعمل وكيلاً لأعمال خاصة، وقد كان قاضياً عظيم الشأن هناك، حيث كُلّف بتصفية تركة رجل تُوفّي يُدعى "جيياكومو بلميري".

توقّف للحظات، ثم استأنف، وهو يقرأ من الورقة بصوتٍ متهدّج، كما لو أن الكلمات أثقل من أن تُقال:

– كتب ذلك الرجل في وصيته تفاصيل نسبه، وأودع وصية صريحة بالبحث عن شقيق له يُدعى "أنطونيو بلميري"، حيث كانا من فقراء نابولي، وعاشا شظف العيش، ثم قرّرا معاً أن يحملا حقائب الأمل ويرحلا في دروب العالم. غير أن الأقدار فرّقتهما كما تفرّق الرياح أوراق الخريف... سافر جيياكومو إلى أوروبا، فيما مضى أنطونيو إلى الشرق البعيد، إلى كلكتا، حيث لا يصل صدى النسب، ولا تعود الرسائل.

قالت جرجونة، وقد تلألأ فضولها في عينيها كما تتلألأ نجمة في سماء الشتاء:

– وهل تبادل الأخوان الرسائل؟

فأجاب بصوتٍ يشبه حفيف الذكرى في خريف القلب:

– أجل، تواصلا سنواتٍ طوال، ثم خبت الرسائل مثلما تخبو شمعة في عتمة النسيان، حتى تلاشت. كتب "جيياكومو" في وصيته أنّ آخر ما بلغه عن أخيه أنطونيو أنه اقترن بامرأة إيطالية تُدعى "نينّا ألسندري"، وأنجب منها غلاماً اسمه "أنيبال"، وصبيّة اسمها "كلوديا".

ثم تنهد، كأنّ صدره يعصره الحنين، وقال:

– كتب إليه مراراً، لكنه لم يتلقّ جواباً، فانهمك في عمله، وتسلق مدارج المجد وحده، وجمع ثروة عظيمة، كأنما أراد بها أن يصالح القدر عن قسوته الأولى. غير أن المرض باغته، فأعدّ وصيته، وأوصى وكيله بالبحث عن أخيه أو من خلّفه من ذرية، في مسقط الرأس... نابولي.

لاذ بالصمت للحظات، كأنه ينصت لصوت بعيد ينبعث من قلب الورق، ثم أردف:

– فكتب الوكيل إلى بلديتنا، فوقعت الرسالة في يدي، وأجبت بما يلزم. ثم لم يسعني إلا أن أتابع الخيط مدفوعاً بشيءٍ أشبه بالفضول أو الغريزة. راسلت قنصل إيطاليا في كلكتا ألتمس منه أوراقاً تروي لي سيرة عائلة أنطونيو بلميري... واليوم، وصلني الرد.

فقالت جرجونة، وقد نفد صبرها كما تنفد دموع عينٍ تعبت من الحزن:

– وأين العشرون مليوناً؟!

فقال ضاحكاً:

– رويدكِ، لا تحرقي الخاتمة قبل أن تسمعي بقية الحكاية.

ثم أردف بصوتٍ خفيض كما لو كان يتحسس حياةً منسيّة:

–أرسل القنصل سبع أوراق رسمية باللغة الإيطالية، وقد حملت جميعها توقيعه، وقد أكدت أن أنطونيو بلميري تزوج "نينا ألسندري"، وعاشا في كلكتا، ورُزقا بولدين: أنيبال وكلوديا... لكنّ القدر لم يُمهلهما طويلاً، فقد حصدهم الوباء الذي اجتاح الهند قبل خمس سنوات.

قالت جرجونة، وقد ذهبت دهشتها بالصوت من فمها:

– من الذي تُوفي؟

فأجاب بيبو، وعيناه تسرحان في الأفق كأنهما تكتبان مرثية في الهواء:

– العائلة بأسرها... الأبوان والولدان، قضوا جميعاً تحت وطأة الوباء.

شهقت وقالت:

– يا للهول! ما أفظع ذلك المصير!

ناولها غلافاً كبيراً، ووضعه أمامها بلطفٍ مهيب:

– ليس هذا كل شيء... انظري هنا، هذا الغلاف مرسل إلى رئيس قلم السجلات في بلدية نابولي، أي إليّ أنا، وقد حوى على سبع وثائق:

أولاً: عقد زواج أنطونيو بلميري من نينا ألسندري.

ثانياً: شهادتا ميلاد أنيبال بلميري وكلوديا بلميري.

ثالثاً: شهادتا وفاة الوالدين.

رابعاً: شهادتا وفاة الطفلين.

قالت وهي تفتح ذراعيها لحزنٍ بدا أكبر من قدرتها على احتماله:

– إذن فقد انتهى كل شيء، ولم يبقَ إلا أن تُودَع هذه الثروة في خزائن أحد المستشفيات الخيرية، بعد أن انقرض الورثة الشرعيون.

فقال، وقد ارتسم على شفتيه ما يشبه ابتسامة الحيلة:

– أجل... هذا ما تنص عليه القوانين، ما لم نجد طريقاً نمنع به ضياع الملايين في غياهب النسيان.

قالت وقد علت ملامحها سحابة من ريبة:
– بيّن لي ما تنويه.
اقترب منها، كأنما يوشك أن يبوح بسرّ دفين، وقال:
– المسألة بسيطة للغاية، لكنها تتطلب خيالاً جسوراً لا يهاب الانزلاق في المجهول. أنصتي لي جيداً: لا تجدين بين الأوراق شهادة وفاة والدي أنطونيو ونينا ألسندري، أليس كذلك؟
قالت وقد قلبت الأوراق مجدداً:
– بلى، لا وجود لها.
قال وقد لمعت في عينيه شرارة المغامرة:
– إذن، لو أضفنا شهادتين مزورتين تثبتان أن الطفلين قد كبرا وعاشا، وصارا رجلاً وامرأة، فإننا نعيد خلق الحقيقة من جديد... فنصبح نحن الورثة، أصحاب الملايين.
قالت بصوتٍ خافت يشوبه ارتجاف الخوف:
– ولكنهما ماتا... أليس كذلك؟
قال ببرود مَن عقد العزم:
– نعم، ماتا، لكن لو افترضنا أنني أنا "أنيبال بلميري"، وأنتِ "كلوديا بلميري"، فمن ذا الذي يملك أن يُكذّبنا؟
قالت، وقد اجتمع في صوتها الدهشة والوجل:
– كل نابولي تعرفنا، وتعرف أصلنا وفصلنا.
– نعم، لكن من حسن حظنا أن باريس لا تعرفنا، وهناك، في مدينة النور، تُسلَّم الثروة، لا هنا.
قالت وقد انفتح أمامها باب لا تدري أهو باب نعيم أم بوابة ضياع:
– إن كنت قد فهمتك، فأنت تنوي أن تنتحل شخصية أنيبال، وأنا أكون كلوديا، ونقبض الثروة باسم لا يمتّ لنا بصلة؟
أجاب مبتسماً ابتسامة من يقبض على حلمٍ لمسه أخيراً:
– أجل، هذا ما أعنيه بالفعل.
فتنهّدت جرجونة، وقالت بصوتٍ يشوبه التردّد والقلق:
– لكن هذه حيلة...
فابتسم بيبو، وفي عينيه بريق مكر، وقال في لهجة الواثق:
– لنفترض ذلك، فإنها حيلة لا تضرّ أحداً. لو لم يُعثر على وريث، لآلت الأموال إلى خزائن الحكومة، وأنت تعلمين أن ما تستحوذ عليه الدولة لا يُعدّ سرقة، فهي لا تضر أحداً
ساد الصمت لحظة، وقد أطبقت الحيرة على جرجونة حتى بدت وكأنها تحثو بين فكّي تردٍ لا يلين، فتأمل أخوها ملامحها بعين الفطنة متسائلاً:
– ما بكِ؟ أتراكِ تفكرين؟
هزّت رأسها وأجابت بصوت خفيض يكسوه الحذر:
– نعم، أفترض أنّنا سلكنا سبيلك، وحملنا الأوراق، ما عدا شهادتي الوفاة، وسافرنا إلى باريس، وقدمنا أنفسنا على أننا أنيبال وكلوديا... فماذا لو لم يصدقنا وكيل الأعمال؟ ماذا لو ارتاب في الأمر وظنّ أن هذه الأوراق مسروقة؟ حينئذٍ ستبدأ التحريات والتحقيقات، وقد ينتهي بنا المطاف في غياهب السجن لا إلى بريق الثروة!
فضحك بيبو ضحكة ساخرة، فيها من الاستخفاف ما يثير الغيظ مستطرداً:
– يا لك من فتاة ساذجة! أما زلتِ تشكّين في مهارة أخيك؟ انظري إلى هاتين الورقتين، ما هما؟
نظرت، ثم قالت بتردد:
– جوازا سفر... لكن لم يُكتب فيهما شيء، ولا خُتما بتوقيع.

– ولهذا عزمت الآن على ملء الفراغين.
جلس إلى الطاولة، وسحب قلمه بنشاط فيه من الثقة ما يبعث الاطمئنان، وأخذ يدون بيانات الجوازين بدقّة بالغة، حيث جعل فيهما أوصافه وأوصاف شقيقته، واختار لهما الاسمين الجديدين: أنيبال وكلوديا بلميري. ثم قلّد التوقيعات الرسمية بخطّه المتقن حتى غدت الصفحتان كأنهما وُضعتا بيد موظف حكومي بارع. بدا الجوازان حقيقيَّين لا يداخلهما شكّ ولا ريب.
عندئذ صاحت جرجونة، وقد بدت الدهشة في عينيها كنجمتين تتلألآن في سماء الذهول:
– ما أمهر يدك يا بيبو! وما أشدّ براعتك في التزوير! والآن... ما الخطوة التالية؟
– لا شيء سوى أن نحمل معنا هذه الأوراق جميعاً، ما عدا شهادتي الوفاة، فهما خصمان لدعوانا، ولا بد أن نُضحّي بهما على مذبح هذه الثروة التي تنتظرنا.
وما إن أنهى كلماته حتى مدّ يده إلى الشهادتين، وألقاهما في الموقد، حيث التهمتهما النار دون رحمة، وهو يتحدث في هدوء:
– بقي أن أكتب إلى وكيل الأشغال في باريس، باسمي الحقيقي، وأخبره أن وريثَي جيياكومو بلميري سيصلان قريباً إلى العاصمة حاملَين ما يثبت نسبهما. وفي غضون أسبوع فقط، نسافر، ونعود بالمليونين، وبلقب بلميري.
فقالت جرجونة بنبرةٍ تحمل امتعاضاً مستتراً:
– لا بأس بالثروة، أما الاسم، فلا يعجبني.
فابتسم بيبو، واستطرد ساخراً:
– ألا ترين أنكِ تستحقين تاج دوقة؟
فأجابت بمرحٍ يحمل ظلّ السخرية:
– بل تاج إمبراطورة... لكن من ذا الذي يمنحني إياه؟
– الدوق دي لوكا نفسه.
فقالت وهي تضحك في استهزاءٍ ناعم:
– ما أكرمه! وهل كافأته على كرمه؟
– بل رفضتُ عطاياه بالأمس... أما اليوم، وقد تهاوى الاسم، وثبتت الثروة، فلا بأس. سأذهب إليه الآن، وأقبل عرضه، وسترى بعينك.
ثم مضت تخبره بما جرى بينها وبين الدوق في لقائهما السابق، فأطرق بيبو برأسه، وهزّه ببطء:
– لعلّ الشيخ المسكين لم يَعُد راغباً بعد كل هذا الوقت...
– تعالَ معي، وسنرى.
دخلا معاً الغرفة المجاورة، حيث كان الدوق دي لوكا مضطجعاً، ساكن الجسد، مغلق العينين، تتقطّع أنفاسه بين الحين والآخر. اقتربت منه جرجونة، ولمست كتفه بيدٍ رقيقة. فتح عينيه بصعوبة، وقال بصوتٍ خافت يشبه النَفَس الأخير:
– تمنيتُ أن أشبع عيني برؤيتك قبل أن أغمضهما إلى الأبد... وأن أرى شقيقك أيضاً. لقد عرضتُ عليكِ قبل قليل أن تصيري زوجتي، فلو كنتِ قبلتِ، لكنتِ الآن أرملتي...
– جئتُ الآن راضية... أقبل أن أكون زوجتك يا دوق دي لوكا.
نظر إليها مستفهماً، فبادرت تهمس، وصوتها يحمل وقع اليقين:
– لقد انكشف السر بأجلى صوره، وظهرت دلائله بوضوح لا يُدحض.
فأجابها الدوق متثاقلاً تحت وطأة السنين والمرض:
– لم أكن لأُلحّ بالسؤال، ولكن اعلمي أن في آل دي لوقا رجلاً لا يُغير كلمته، ولا ينكص عن وعده، فثقي يا ابنتي، أنكِ من الآن ستكونين الدوقة دي لوقا، وأظنك تحرصين على ذلك اللقب، مثلما حرص عليه أسلافي منذ قرون.

ثم أضاف بنبرةٍ يائسة فيها استعجال المحتضر:
– لا بد من التعجيل إذن، فالزمن لا يُمهل. وللحُكّام الحق في إتمام الزواج، وإن بدا غير مألوف... خذي بيبو الآن، واطلبي منه أن يأتي برجل يُعتمد عليه، ثم ليطلب لي قسّاً بعد ذلك.
مضى بيبو رغم الحمى التي كانت تفتك بالشيخ، وقلبه معلقاً بمصير شقيقته، بينما راحت جرجونة تعطف على الدوق البائس، وتبلّل شفتيه بالماء البارد على أمل أن تخفف عن آلامه.
عاد بيبو وبرفقته موظف رفيع المقام، وأربعة شهود جمعتهم الصدفة، وأخيراً قسّيس جاء ليشهد ما هو قادم. فجلس الجميع، وحرر العقد على عجل. أما الدوق المحتضر، فقد تلاشت قوته، ولكن يده المرتجفة كانت لا تزال قادرة على توقيع اسمه، ولو بصعوبة. كان كل حرف يخطّه كأنه وداع لروحٍ تشرف على مغادرة هذه الدنيا.
ثم تقدمت جرجونة، وأمسكت بالقلم، ووقعت العقد باسم كلوديا بلميري، كما لو أنها تبدأ فصلاً جديداً من حياتها، فصلاً لا علاقة له بما مضى، سوى أنه حمل بصمات الخداع والسراب.
سأل الموظف، وهو يرفع حاجباً في تساؤلٍ رقيق:
– ولكن، أين إثبات نسبكِ؟
فأجابته جرجونة بهدوء، وهي تقدّم له عقد ميلاد كلوديا بلميري المصدّق عليه من قنصل إيطاليا في كلكتا. لم يساور الموظف شك، وبدا الجواب كما لو كان خاتماً رسمياً على موروث من الكذب، فوقع الشهود الذين جمعتهم العجلة من قارعة الطريق على ما حدث.
خرج الجميع، وبقي القس إلى جوار الدوق يستمع إلى اعترافه الأخير، والليل من حولهم ينسج خيوط النهاية على صفحةٍ كانت في لحظاتٍ مضت حبلى بالمكر والخداع.
بعد يومين فقط، رفع الدوق عينيه المتعبتين ليلقي نظرة أخيرة على الفتاة التي باتت تحمل اسمه، وقد أودعها كل ما تبقى له من الحياة. كانت أنفاسه الأخيرة تتهدّج بين الأمل واليأس، بينما لم تقم جرجونة، وشقيقها بيبو، في نابولي سوى أياماً معدودة، فقد رحلا سريعاً، استقلا القطار إلى باريس، حيث كانت الثروة تنتظرهما. ولم تكف جرجونة عن ترديد كلماتها كأصداء في قلبها:
– الآن، فقد غدوت دوقة عظيمة الشأن لأنني أمتلك الملايين!
ومن هنا نسير برفقتهما في طريق الثراء تاركين خلفنا ضجيج نابولي المزعج لنهبط في الشرق، في مدينة "بوندشيري"، عاصمة الهند الفرنسية في ذلك الزمان. هناك، في أحد القصور الفخمة التي تُبهر العين، تلوح فتاةٌ في الخامسة عشرة من العمر، وتُدعى الآنسة "بوليت دي موري"، وهي ابنة حاكم المستعمرة. كانت مستلقية على أريكة وثيرة يلفها ثوب أبيض ممزوج بلون أصفر باهت، وكأنها شبحٌ من نور أو جسدٌ مستسلم للغياب.
وقف الطبيب روبلين، الطبيب الفرنسي ذائع الصيت، مطمئناً لوالدها قائلاً:
– لقد نجَت من الخطر، لكن شفاءها الكامل يحتاج إلى حمية طويلة وحرص بالغ.
أما والدها، الكونت دي موري، فكان لا يفارق فراش ابنته، بلا كلل أو تعب، وقد امتلأ قلب والدتها بالطمأنينة بعد أسابيع من القلق والاضطراب. وفي إحدى زوايا الغرفة، جلست العمة "باسيليك"، شقيقة الكونت، في هدوء، وهي سيدة في منتصف العمر لم تتزوج قط، حيث كرست حياتها لمرافقة أخيها في تلك الأرض البعيدة، وظلت تهتم بشؤون أسرته.
وقبل أن يغادر الطبيب، تحدثت الكونتيسة معبرة عن رغبتها:
– لا بد من الحصول على إجازة طويلة نسافر خلالها إلى فرنسا، فنسيمها مفيد لصحة بوليت.
لكن الطبيب أجابها محذراً:
– لا أنصحكم بذلك في الوقت الحالي، فإن أخطر ما يهدد المصابين بالحُمّى الهندية، هو السفر قبل اكتمال الشفاء. قد يعود المرض، ويتضاعف أثره، ويُصبح الشفاء أمراً متعذراً. من الأفضل أن تبقوا هنا ستة أشهر على الأقل، وربما سنة كاملة.

كان مرض الابنة قد شغل الكونت عن متابعة أعماله في المستعمرة، فأوكل إدارة شؤونها لنائبه، السيد "جاستون دي فالبير"، ذلك الشاب الكريم صاحب الأخلاق العالية، والذي كان يكثر من زيارة قصر الكونت للاطمئنان على حالة الفتاة.

وحينما هدأ قلق الكونت على ابنته، قرر أن يحضر الحفل الزراعي السنوي الذي يُقام في ضاحية المدينة. كان احتفالاً رمزياً يظهر سطوة النفوذ الفرنسي في المنطقة، ويعد حضوره أمراً ذا رمزية سياسية. أُعدت مراسم الحفل بعناية، وانطلق الموكب يتقدمه موظفو الدولة وخدم الحاكم، ومن بينهم خادمه الهندي المخلص الذي بدا مثالاً نادراً لفضائل الهندوس: الإخلاص، الصبر، والولاء التام.

وعند وصول الكونت، حرص على إظهار الاحترام الكامل لطقوس الهندوس ومعتقداتهم، فوقف طويلاً تحت شمس الظهيرة الحارقة حتى أضناه التعب. اقترب منه أحد الخدم قائلاً:

– سيدي، الشمس قاسية، وليس من الحكمة أن تُطيل الوقوف.

أشار الكونت إليه بالانصراف، وعاد إلى القصر، حيث شعر ببعض التحسن، لكن مع اقتراب الليل اجتاح جسده بردٌ قارس، ومن الغريب أنه شعر بنيران تسري في عروقه. نام مضطرباً، وقد تأججت أعماقه بنار خفية.

وفي الصباح، دخل عليه خادمه الهندي ليجد أن ملامحه قد تغيّرت، وصوته يئن من ألمٍ غامض، فقد شهد هذا الخادم من قبل أعراض هذا المرض ذاته على عدد من الأوروبيين، ورأى كيف أصاب ابنته منذ أشهر، فهرع إلى الطبيب الذي أقبل سريعاً.

وما إن دخل الطبيب حتى أدرك الكونت بعين الفطن أن الحُمّى الهندية قد عادت، تلك الحُمّى الخبيثة التي إن لم تُعالج في بدايتها، استحالت إلى مرضٍ فتاك لا يُرجى منه نجاة.

وفي تلك اللحظات الحرجة، راح القلق يعصف بعيني الطبيب، وقد قرأ في نظرات الكونت علامات الخطر الوشيك. سارعت خطواته صوب الكونتيسة، ولم يذهب ليطمئنها، بل ليُحدّثها عن أمر جلل. وما إن وقف أمامها حتى بادرته بنبرةٍ حملت عتاباً:

– تأخرت في زيارتك اليوم، أيها الطبيب!

أجابها بلهجة حازمة، لا تقبل تأويلاً:

– لم آتِ هذا الصباح لأطمئن على الآنسة بوليت، بل جئتُ لأحدثك عن أمر يتعلق بزوجك.

جمدت ملامحها للحظات، ثم ارتسمت الحيرة والدهشة على وجهها، وسألته في ذهول:

– من أجل زوجي؟ وما الذي ألم به؟

أجابها الطبيب بنبرةٍ حملت القلق الصادق:

– إن الكونت قد أُصيب بمرض عضال، ولن يظل في حاله الراهنة طويلاً ما لم نتدارك الأمر سريعاً، فالمؤشرات تنذر بتدهور وشيك، وإن لم نعجل، فلن يُجدي ندمٌ بعد ذلك.

قالت الكونتيسة في لهجة مفزوعة:

– ما هو ذلك المرض؟

أجابها الطبيب بثقة المتمرس:

– إنه ذات المرض الذي ألمّ بابنتكِ... الحُمّى الخبيثة.

رفعت يديها صوب السماء، وقالت في لهفة:

– يا ويلنا! أي مصائب تلاحقنا!

لكن الطبيب حاول تهدئتها:

– لا داعي للذعر يا سيدتي. ما دامت الأعراض لم تتفاقم بعد، فثمة أمل. لكن الشرط الوحيد أن يسافر زوجك في الحال، في غضون ساعة واحدة على أقصى تقدير. عليه أن يسافر على متن السفينة المتجهة اليوم إلى أوروبا، وليس في الغد، فإن

فاتته الرحلة، سيتوجب عليه انتظار أسبوع كامل، وذلك خطر لا يمكننا احتماله.
تنهدت الكونتيسة وقالت بأسف:
– لكنه يرفض السفر اليوم...
فصاح الطبيب بلهجة قاطعة:
– رغباته لا محل لها الآن، فصحتُه في خطر حقيقي، ويجب اتخاذ القرار دون تردد.
– أتريد أن أُجبره على السفر؟!
أجابها الطبيب بابتسامة هادئة حملت مرارة المسؤولية:
– أرى تنويمه أمراً ملحاً. قد يبدو الأمر مشوباً بالغرابة، لكن اتخاذ هذه الخطوة أصبح ضرورة لا جدال فيها. وإذا تقاعسنا، سنكون مسؤولين عما قد يحدث. أما أنا، فأتحمل هذه المسؤولية كاملة.
فقالت الكونتيسة، وهي تتشبث بذراعه:
– وأنا كذلك... أريد إنقاذ زوجي بأي وسيلة.
أجابها الطبيب بعزم لا يعرف التردد:
– إذن، سأعطيه المخدر الآن، لتبدأوا الرحلة دون علمه، وحتى لا يقاوم العلاج. تأهبي للسفر يا سيدتي، واعلمي أن حياة الكونت في خطر غداً إن لم يُغادر اليوم. بل حياة ابنتك أيضاً ستكون مهددة إن سافرت هي أيضاً.
لكن الكونتيسة وقفت حائرة، وقالت بصوت مختنق:
– لا أستطيع أن أدع زوجي يسافر وحده في هذه الحالة... ولا أقدر على مفارقة ابنتي وهي ما تزال في مرحلة النقاهة.
فقال الطبيب في رفق حنون:
– لا تقلقي على ابنتك، فبقاءها هنا هو الحل الأمثل. دعيها في عهدة عمتها، ورافقي زوجكِ... الوقت لا يتسع للجدال.
وفي تلك الأثناء، لاحت العمة "باسيليك"، وقد علمت بالأمر، فأكدت للكونتيسة أنها ستتكفل بالفتاة، وقالت:
– سافري يا لورانس مطمئنةً، فشفاء الكونت يتطلب وجودك إلى جانبه. أما أنا، فسأبقى إلى جانب بوليت. إنها مستغرقة في النوم الآن، فلا توقظيها، ولا تطلعيها على أمر سفرك، فجرح الفراق في هذه اللحظة قد يؤخر شفاؤها. سأقوم بكل شيء لأبقيها هادئة حتى تعودي.
قالت الأم: "بل أدخل مخدعها وأقبّلها وهي نائمة ثم أمضي.
– لا بأس، إنما حاذري أن تستيقظ.
فدخلت الأم مخدع ابنتها ولثمت جبينها بطرف شفتيها، ثم اجتذبتها العمة باسيليك.
وبعد أقل من ساعة، كانت العربة تنقل الكونت دي موري وزوجته لورانس إلى الميناء، حيث كانت السفينة تنتظر انطلاقها إلى فرنسا. وفي اللحظة ذاتها، كان بيبو وأخته جرجونة على متن القطار يشقّان طريقهما إلى باريس ليضعا أول قدم على درب الثراء الممهّد بالحيلة، والملفوف بعباءة الأقدار.

الفصل الثاني

كان حمى الكونت دي موري رجلاً جليلاً تعتز به البحرية الفرنسية أيّما اعتزاز، وتخصّه بإجلالٍ يليق بعظمة مقامه، ذاك هو الأميرال "فيرمان دي لامارش"، شيخٌ تجاوز الثامنة والستين، غير أن عينيه لا تزالان تبرقان ببريق الجرأة، وخطاه تشي بعزيمة لا تلين. صرامته كحدّ السيف، وشجاعته لا تعرف الرجوع، ولا يهاب في ساحات القتال عدواً، ولا يخشى من المجهول مفازة أو عاصفة. كانت البحار داره، والرياح رفقته، والمعارك معزوفته اليومية. ومنذ أن شبّ عن الطوق، لم يعرف عاماً إلا وكانت فيه له صولة، إما على صهوة سفينة، أو في مواجهة خصمٍ أو دهرٍ أو قدرٍ.

كان دائم التقدّم، لا يعرف التقهقر، يقتحم ساحات الموت كما لو كانت ميادين رقص، ويصوغ من الخطر سلّماً يعتليه نحو المجد. وهكذا، خُط اسمه في سجل الشرف البحري بحروفٍ تبرق كالذهب المصفّى، نقشها التاريخ بمداد البطولة والإقدام.

لكن ما من عظمةٍ جافةٍ في قلبه، بل امتزجت صلابته بحنوٍّ رقيق، ورجولته بعدلٍ لا يميل، وسخاءٍ لا يعرف الشح ولا الوهن. أحبه من خدم تحته، وكان مثالاً يُقتدى به في القيادة والإنصاف. أحاطه الضباط والبحارة بقلوبٍ مفعمة بالاحترام، ورأوا فيه أباهم كما رأوا فيه قائدهم.

أما رفيقة عمره، فكانت أصغر منه سنّاً، ومع أن الأيام قد أودعت في وجهها بعض خطوطها، إلا أنّ ما بقي من جمالها يكفي ليُبهج العين ويأسر القلب، حيث تُتوَّج هالتها بشَعرٍ أبيض كالثلج الموشّى بالوقار. لم يُرزقا إلا بابنتهما الوحيدة، "لورنس"، والتي وهبوها قلبهم كلّه، فغدت شمس حياتهم الوحيدة، وزوجة الكونت دي موري.

فلما جاء اليوم الذي عُيّن فيه صهرها في منصبٍ رفيعٍ بالهند، خفق قلب الأم جزعاً، إذ علمت أن فراق ابنتها بات أمراً محتوماً، فاغرورقت عيناها بدموع الحنين، ولم تجد عزاءً إلّا في التسليم لحكم القدر.

وفي أحد الأيام، وبينما الأميرال منشغلٌ في مكتبه، جاءته برقية من ابنته، فأسرع صوب زوجته يحملها بين يديه كأنما يحمل قلبه، وقال بصوتٍ تختلط فيه الحيرة بالرجاء:

– أتعلمين من أين وردت هذه البرقية؟

رفعت رأسها بهدوء، وقالت:

– من بوندشيري، لا شك.

هز رأسه بتنهيدةٍ خفيفة، وقال:

– بل من عدن... إن لورنس غادرت بوندشيري على عجل، فقد أصيب روجر بمرضٍ خطير ومفاجئ.

ثم ناولها البرقية، فقرآها معاً بشغفٍ ولهفة:

– لقد سافرنا فجأة من بوندشيري، لأن زوجي روجر أصيب بمرضٍ خطير، وقد زال عنه الخطر، وبقيت بوليت مع عمتها، وهي تتعافى بشكل ملحوظ. سيكون وصولنا إلى مرسيليا يوم 20 يونيو. نراكم في أحسن حال.

لورنس

وما إن أتمت الأم القراءة حتى نهضت في عزمٍ لا يلين، ولم تتردد لحظة في أن تتجه إلى مرسيليا بنفسها لتكون في استقبال فلذة كبدها، فودعت زوجها بكلماتٍ عذبة مشبعة بالشوق، وسافرت إلى الجنوب.

وهناك، في محطة الوصول، التقت عينا الأم بابنتها، وامتزج العناق بالدموع، وعادت الطمأنينة إلى القلب المُضطرِب. لكنها، رغم بهجة اللقاء، لم تُغفل شأن صهرها، فاستدعت طبيباً لتسأله عن حالته، فقد خشيت أن يكون السفر إلى باريس مرهقاً له. ابتسم الطبيب برفق، وقال:

– من الأفضل أن يقيم في إحدى مدن الجنوب: نيس، أو مانتون، أو هيار، أو كان... وهذه الأخيرة، أراها الأمثل، والأجدر بالراحة والشفاء لما فيها من هدوء وأناقة وخدماتٍ لا يُضاهى بها شيء، ففيها فندق الكاب، المعروف على الصعيد العالمي، والذي تحفه الطبيعة بجمالٍ ساحر.

فأعجب الجميع برأيه، وقرّروا المضيّ إلى "كان"، حيث حُجز جناح فسيح في فندق الكاب المطلّ على رأس أنتيب.

وفور وصولهم، فتحت النوافذ على مشهدٍ يخلب الألباب، خليج صافي المياه، وجزر سانت مارغريت تلوح كأحلامٍ ناعمة، ومدينة كان بأبنيتها البيضاء والوردية، حيث تسبح في ضوءٍ مائلٍ للحنين، وفي الأفق جبال الألب شامخة تتلألأ ثلوجها كتيجانٍ من ألماسٍ باذخ، وتتوسّد السماء في كبرياءٍ صامت.

وحول الفندق، تتماوج البساتين وتتنفس الأرض عبير الليمون وزهر البرتقال، فتغدو الأرواح هائمة في جنةٍ أرضية لا يعكر صفوها غبارُ الحزن ولا سحبُ الكدر.

وفي تلك الليلة المترفة، اجتمع نزلاء الفندق في بهوٍ فخم كأنه صالون الأمراء، حيث تزيّنت الموائد بأزهى الزهور، واشتعلت الأضواء كنجومٍ هبطت من سماوات الأنس، وعزفت الموسيقى لحناً للحياة يتراقص على إيقاعه الهواء، وتتمايل الأجساد كأنها طيورُ عشقٍ ترفرف في بهجة المساء.

كان الحفل عامراً، والأنفاس معطّرة، والوجوه مبتهجة، وقد اجتمع أسفل سقف ذلك الفندق الرائع صفوة الناس، من أصحاب الذوق الرفيع، والثروة المعلومة، والقلوب المتّقدة بالشغف. وكان الكونت وزوجته بين أولئك ينعمون بهدنةٍ من صخب الحياة، وأملٍ بأن الغد سيكون أكثر سكوناً، وأكثر دفئاً.

في اليوم الأول لوصولهما، اختار الكونت دي موري وزوجته مجلساً قريباً من امرأة فاتنة تتهادى في مشيتها كأنها غيمة من نور، حيث تأسر العيون بجمالها الرهيف، وسحرها الذي لا يُقاوم. كان برفقتها رجل بدا للناظرين زوجاً لها، غير أن الخدم ما انفكوا يخاطبونه بلقب سيدي، وينادون المرأة سيدتي الدوقة، مما أثار في نفس الكونت تساؤلاً، فمال على زوجته بعد العشاء وسألها بنبرة هادئة:

– من تكون هذه الحسناء يا لورنس؟

فأجابته بعفوية، كمن يعرف خبايا الأمور:

– إنها إيطالية الأصل، أما الرجل فهو شقيقها، يُدعى أنيبال بلميري، وهي أرملة ثرية تُعرف بالدوقة دي لوقا.

وهنا، ينبغي أن نميط اللثام عن سيرة هذه المرأة وشقيقها، وكيف ساقهما القدر إلى هذا الفندق الفاخر، يتهادَيان في أروقته كأحد أبناء الطبقة الرفيعة، فقد ورث بيبو وشقيقته جرجونة ثروة طائلة عن جيياكومو بلميري، وعند وصولهما إلى باريس، استأجرا شقة مفروشة، وبدآ حياة مغمورة بالترف محاطة بعبير المال، وبهرجة المظاهر. وما إن أطل الشتاء حتى قررا الالتحاق بركب السائحين الأثرياء إلى فندق كاب أنتيب، حيث تستريح النفوس، وتُعرض الأقدار في سوق المجد والوجاهة.

وبينما راح الشتاء يطوي أوراقه، أعلنت الدوقة عزمها على الرحيل، وأبلغت شقيقها الذي كره السفر كُرهاً، فقال لها بأسًى شفيف:

– كم يعتصرني الحزن أن أغادر هذا المكان.

فأجابته برقة هادئة:

– لا مناص يا أخي، فنحن راحلون بعد ثلاثة أيام.

دار هذا الحديث في نفس الليلة التي شهدت قدوم الكونت دي موري وزوجته ووالدتها، زوجة الأميرال العظيم دي لامارش. وسرعان ما تناهى إلى مسامع الدوقة اسم الأميرال الذي تهتز له أركان البحار، فراحت تبوح لمن حولها بما يجيش في صدرها من إعجاب بصيته ومقامه.

وفي صباح اليوم التالي، خرجت الدوقة تتنزه في الحديقة الغنّاء للفندق، حيث زقزقة الطيور تلامس وجدانها، والنسيم العليل يمر كأنفاس العاشق. وبين الممرات الظليلة، التقت بعين رجل يفيض هيبةً وسحراً. لم تكن تدري من هو، لكنه شدّها بجاذبية لا تقاوم. إنه الكونت دي موري الذي توقف للحظات يتأملها وكأن وجهها مرآة الروح. تبادلا نظراتٍ صامتة فيها من الحديث ما لا يسعه الكلام، ثم واصل الكونت طريقه، في حين أن الدوقة ظلت تُتبعه بعينين مندهشتين قبل أن تتخذ مجلسها في بهو الفندق.

وما هي إلا لحظات حتى لاحت السيدة هيلتون، وهي أرملة ضابط إنجليزي، حيث جلست إلى جوارها، وأخذت تبالها أطراف الحديث، رغم أن الدوقة كانت تتوق إلى العزلة. وفيما كانت تهم بالنهوض وضعت الأرملة منظارها أم عينيها،

وقالت:
– هذه صديقتي، زوجة الأميرال دي لامارش.
فاستدارت الدوقة لتجد نفسها أمام امرأتين مقبلتين، إحداهما إنجليزية الملامح، والأخرى تشعّ منها ملامح النبل والحنان، وقد تعرّفت سريعاً إلى زوجة الكونت ووالدتها، وما لبث أن أقبل الكونت نفسه، فاكتمل المشهد بلقاء تعارفي نسجته حماته بخيوط اللباقة.
وبعد حديث ممتع، خاطبت الكونتيسة زوجها قائلة:
– ألا تصعد معي يا روجر؟
فأجابها بصوتٍ وادع:
– الجو عليل هنا، دعيني أستمتع قليلاً، وسأصعد لاحقاً.
وقد انصرفت الكونتيسة مع والدتها والسيدة هيلتون، وبقي الكونت وجهاً لوجه مع الدوقة دي لوقا، وقد خيّم عليهما صمتٌ لا تفسره الكلمات، لكن النظرات تفيض به أسراراً.
قالت الدوقة بصوتٍ خفيض يشبه نغمة وتر شجيّ:
– لمَ بقيت؟
كان الكونت مطرقاً يرسم بعصاه خطوطاً على الأرض، كمن يخجل من البوح، ثم أجاب دون أن يرفع بصره:
– بقيت لأشكركِ...
رفعت حاجبيها بتعجب رقيق قائلة:
– وأي شكرٍ أستحق؟
عندئذ، رفع عينيه إليها، وفي عينيه لهب لا يُطفأ:
– لأنكِ أضأتِ لي العالم، وزدتِه بهاءً فوق بهائه.
ثم أشار بيده إلى الأفق، وقال بنبرةٍ غلفها سحر العاطفة:
– انظري... تلك الجبال السامقة، وتلك الغابات الندية، والبحار التي لا ينتهي مداها، كلها من آيات الجمال، لكني لم أكن أراها كما أراها للتو. لم أكن أحسّ بها حقّاً حتى وقعتُ على وجهكِ... الآن فحسب، صارت كل تلك الروائع تتحدث إليّ، تصيح: "أنتِ الأبهى، بل أنتِ الكمال المتجسد".
ثم أضاف بصوتٍ متهدج تنساب كلماته من قلبه:
– أنا الذي وصلت بالأمس، رجلٌ غريب، ضعيف أمام سحر هذا الكون... لكن قلبي ارتجف في حضرة نسيمكِ، وانحنت له أغصان السنديان. رأيت فيكِ بهاء العالم كله، لا بعيني، بل بقلبي.
ولو أن رجلاً آخر أفصح لها بمثل هذا الكلام، لما هزّ فيها ساكناً، لكنها أحست في حديث الكونت حرارة لا توصف، كأنها نغمة صادقة خرجت من أعماق قلبٍ لم يعرف الزيف. تسللت كلماته إلى أركان نفسها، ولم تكن تعلم أنها تحمل في قلبها عطشاً قديماً إلى هذا النوع من المشاعر، فعانقها الهوى فجأة، لا كغريب، بل كحبيب قديم عرفت حضنه دون أن تلتقيه.
وهكذا استرسل الحديث بينهما همساً يتقاطع بين الحذر والبوح، حيث تسكنه رياح العشق الأولى، وتغمره رقة النظرات. وحين همت الدوقة بالانصراف، لم يفلت الكونت يدها، بل أمسك بها للحظات، كأنما يقطع لها عهداً صامتاً، ويهمس في كفّها بما لم يقدر لسانه على النطق به. وقد تفرّقا أخيراً يحمل كلٌّ منهما في قلبه شعلةً من لهب، حيث تتقد كلما تذكرا تلك الساعة التي لن تمر كما تمر الساعات، بل ستبقى كشعلةٍ لا تنطفئ، كجمرٍ تحت رماد الحنين.
ومنذ ذلك اليوم، قررت الدوقة أن تمدّ إقامتها شهرين آخرين. وخلال تلك الفترة، نسجت صلاتٍ وثيقة مع علية القوم، وامتزجت بروح المجتمع حتى غدت من تلك الأسماء التي لا تُنسى، ومن تلك الوجوه التي إذا ظهرت، أضاء المكان ببريقها.
ثم ما إن أسدل الزمن ستاره على ذلك الفصل المترف حتى عاد الجميع إلى باريس على متن القطار ذاته يحمل كلٌّ منهم في

قلبه طيفاً من الذكريات التي لا يُمحى أثرها، ذكريات نُقشت على جدار الروح كما تُنقش الأحلام على صفحة الماء وقت السَحر. وهناك، في قلب العاصمة النابض، اتخذت الدوقة لنفسها مسكناً أنيقاً في شارع "فارين"، ذلك المسكن الذي يتعالى فوق منزل الكونت دي موري، والذي كان من أملاكه الخاصة. غير أن القرب بينهما لم يكن مجرد تلاصق في الطوابق أو اتفاق في العناوين، بل كان مجاورة تتجاوز الجدران والحواجز، مجاورة تسري في الأعماق، كأن الأرواح قد وجدت أخيراً ما يُشبهها. ظلّ بينهما وهج لا ينطفئ، شعلة لم تهدأ، كأنما تلك النظرة الأولى التي تلاقيا فيها في حديقة الفندق لم تكن لحظة عابرة، بل شرارة خالدة أشعلت في روحيهما ناراً لا تخبو، بل تستعر كلما اقترب المساء.

الفصل الثالث

أما جرجونة، فقد آثرت الركون إلى تلك الزاوية العتيقة من المسكن القديم، حيث تنبعث من الجدران أنفاس الزمن الغابر، وتفوح من الزوايا رائحة الذكرى، وتتهامس الأرواح بأحاديث الماضي التي لم تَخْبُ نارها بعد. عجزت عن استيعاب النعمة التي أحاطتها فجأة كما يُحيط السحاب قمم الجبال، كأن السعادة باغتتها بحضورها العارم، حتى بدت لها بلا ضفاف لا يحدّها زمان، ولا يحتجزها مكان. لقد شعرت، بكل كيانها، أنها نالت حظّاً يفوق الأحلام، وأن ما بلغته من سكينة ومقام إنما هو غنيمة العمر الكبرى، ذلك الفوز الذي لا يعادله نصر، ولا تُضاهيه منحة.

غير أن الكونت دي موري، وبرغم ما حفّ حياته من استقرارٍ مع زوجته، لم يكن بمنأى عن ذلك الشعور المترسّب في أعماقه إزاء الدوقة دي لوقا، ذلك الميل الخفي الذي ظل يتغذّى بصمتٍ منذ أول لقاء، حيث تشعّب في قلبه كجذور نبتة نمت في الظل إلى أن صار حنيناً هادئاً لا يُعلن عن نفسه، لكنه لا يغيب. ثمانية عشر عاماً من حبٍّ قائم على الوفاء، وعنايةٍ هادئة، مرت كأنها صفحة ناعمة في كتاب الحياة، لكنه حين التقى بعذوبة الدوقة وجلال حضورها، ارتجف في داخله وترٌ لم يمسّه أحد من قبل، واستيقظت فيه رغبة لا تشبه ما مضى، وكأن تلك المرأة قد أيقظت فيه التوق إلى ما لا يُقال.

أما جرجونة، فقد رأت في هذا الشعور الجديد وهجاً نقيّاً، عاطفةً شفافة لا تشوبها شائبة. وبدل أن ترتعد أو تغار، شعرت بنصر خفيّ، وكأن في ذلك الميل النبيل اعترافاً غير منطوق بقيمتها، فاشتدّ كبرياؤها، وازدادت ثقتها بكرامتها، فتألقت في عيني نفسها كما لم تفعل من قبل. لم تعد تلك الفتاة الحالمة التي تحدّق من بعيد، بل أصبحت امرأة تقف على مقربةٍ من الرجل الذي سكن خيالها طويلاً، ولم يعد يفصلها عنه ستار من تقاليد أو جدران كما كان الحال في فندق كاب أنتيب، حين كانت الأسوار غير مرئية تحجب عنها حتى النظر إليه.

أما شقيقها أنيبال، فقد انسلخ عن صخب الحياة، واختار نهج الفلاسفة في نظرته إلى الناس والعالم، حيث يتأمل بصمت، ويمضي أيامه في صحبة الأميرال دي لامارش، زوج والدة الكونت، في جلسات تطول، يتحدثان فيها عن البحر، وأمواجه التي لا تهدأ، والأساطيل التي خاضت معاركه، والعواصف التي تحدّتها السفن بكل شموخ. كان حديثهما ينبض بالحياة، يسرق انتباه من حولهما، يروي ظمأ الحنين في نفس الأميرال، ويمنح الحاضرين لحظة من السحر لا تُقارن.

وفي إحدى تلك الجلسات، وقد أسرف الأميرال في حديثه كعادته، انسحبت زوجته من المجلس تمضي نحو عزلتها، حيث تلوذ بالخلوة كما تفعل دواماً، فرفع عينيه إلى الجمع، وقال بنبرةٍ خفيفة: "زوجتي تألف الخلوة، وقد اعتدت ذلك منها، كنت في البدء أخشى على صحتها، لكنني تعلّمت أن أُسلّم لما ترتاح له، وإن ظلّ القلق يسكن قلبي كزائرٍ لا يرحل".

في تلك الأثناء، راحت زوجة الكونت (لورانس) تردد في أعماقها كلمات لم تبرح ذهنها: "لا شك في أن لأمي سرّاً تخفيه بين ضلوعها... سرّاً لا تشاركني فيه، ولا تشارك والدي... ترى، ما الذي يمنعها عن البوح؟ أليست ثقتها بي كافية؟".

وكأن الأقدار كانت تستمع لندائها الصامت، إذ قُدّر لها أن تمسك بطرف الخيط حين شرعت في فتح رسائل والدتها البريدية، مثلما اعتادت أن تفعل في فترات غيابها أو انشغالها، لا بدافع الفضول، بل بدافع بنوةٍ مشفقة ترغب في تخفيف العبء عن كاهلها. ألفت أن ترد على بعض تلك الرسائل متظاهرة بأنها والدتها، سيّدة تتعاون مع الجمعيات الخيرية، تمدّ يدها إلى من يحتاج، علّها تزيح عنهم ألماً.

وفي ذلك اليوم، وبين الرسائل المعتادة، جاءها طرد حوى عدة مغلفات. فتحتها واحدة تلو الأخرى حتى وصلت إلى الثالثة، فتبدلت ملامح وجهها في الحال، كأن رياحاً باردة عصفت في وجنتيها، فقد رأت على الظرف ختماً غريباً أيقظ في داخلها رجفة، وكأن شيئاً يترصّد خلف الكلمات يوشك أن يُفصح عن سرٍّ دفين. توقّفت، وتساءلت في أعماقها عن مغزى هذه الرسالة، عن ذاك الذي أرسلها، وعن الحقيقة التي لعلها على وشك أن تتكشّف.

أمسكت لورانس الرسالة بيدٍ مرتعشة، وأخذت تقرأ، وكانت كل كلمة كطرقة على أبواب القلب، فعنوانها وحده كان كفيلاً بأن يشعل نذراً من القلق:

إلى السيدة زوجة الأميرال غريمين دي لامارش،

سيدتي،
كاتب هذه الرسالة رجل لا تعرفينه، ولكنه يرجوكِ بالرأفة ويطلب لقاءكِ.
أُدعى، يا سيدتي، "روبر بوريل". ولعلك لم تسمعي بهذا الاسم من قبل، ومع ذلك... فأنا ابن البارون دي كورديو. وكم من مرة ذُكر هذا الاسم أمامكِ، فحرّك فيكِ ذكريات وأموراً قديمة! وإني، إذ أعلم أن زيارتي قد تثير في نفسكِ ما لا تحبين ذكره، لا أرجو منكِ سوى أن تأتي إليّ بدلاً من أن أطرق بابكِ.
إن بيتي، رغم بساطته، يقع في ناحية دراجون، رقم 20، على مقربة من شارع فاين.
وأعلم، يا سيدتي، أن حضوركِ إليّ خير من حضوري إليكِ، لأنني أعلم صعوبة تفسير مثل هذه الزيارة لزوجكِ الأميرال.
ومع ذلك، هنالك أمر لا بد أن تقتنعي به: هو أن سمعتكِ وسعادتكِ متعلقتان بكيفية تلقيكِ لهذه الرسالة.
المطيع الخاضع،
روبر بوريل
وما إن فرغت من القراءة حتى اكتسى وجهها بظلال من الغضب والذهول، وهمست في نفسها: " يبدو أن كاتبها نذل تكفي معاقبته بالسكوت والاحتقار، بل لعل الأجدر أن ألقي بهذه الرسالة في النار، وأُطفئ بها شرارة قد توقد الشك في قلبي.
لكنها توقفت، وتردّدت، إذ تذكّرت العبارات الملتفّة، والنذر الذي اختبأ بين السطور. وفجأة، ارتعشت الفكرة في ذهنها:
– من يكون هذا البارون دي كورديو؟ أيعقل أن والدتي... تخفي عني سرّاً بهذا العمق؟ أيمكن أنني أقف، دون أن أدري، على حافة هاوية لا أراها؟ إن الله أراد لحكمةٍ ما أن تقع هذه الرسالة في يدي أنا، لا في يد أمي... فلمَ لا أذهب بنفسي إلى هذا الرجل الغامض؟ المنزل قريب، والوقت ملائم...
نهضت في الحال، كمن أدرك دوره في مشهدٍ لم يكن يُحسب له حساب، وغادرت المنزل بخطى حاسمة. عبرت شارع فاين، ثم انعطفت إلى ناحية دراجون حتى وقفت أمام باب المنزل الذي يحمل الرقم عشرين. كان البناء متداعياً، كأن الزمن قد نهش أطرافه، وتردّدت للحظة، لكنها طردت الخوف من قلبها، وطرقت الباب.
وعندئذ جاءها صوت خافت مشوب بالحذر يقول: "افتحي الباب!".
دفعت الباب، ودخلت متّشحة بشجاعة لا تعرف التراجع. وهناك، في الداخل، وقف شاب مرتبك تنطق ملامحه بالذهول، حيث نظر إليها مليّاً، ثم تمتم: "من تكونين يا سيدتي؟".
لم تجبه مباشرة، بل ثبت نظرها فيه وسألته بثبات يشوبه الغموض:
– أأنتَ السيد روبر بوريل؟
جاءها صوته سريعاً، كمن باغته السؤال:
– أجل... لقد أربكني سؤالكِ.
ثم قرب مقعداً منها، وأشار إليها بالجلوس، فسألته بنبرة فيها شيء من الحذر:
– أأنتِ تنتظر زوجة الأميرال غريمين دي لامارش؟
– أجل، وإن سرني أن ألقاك، لكنني أعيد سؤالي عليكِ فإنك لم تجاوبيني عليه بعد... لمَ اختارتك زوجة الأميرال لهذه المهمة، ومن مصلحتها في إبقاء العلاقة التي تربطني بها طيَ الكتمان؟
– الواقع أنها لا تعلم بزيارتي هذه، وأرجو أن تظل على غير علم بها... أنا، يا سيدي، من وقّع الرسالة التي وصلتك... أنا الكونتيسة دي موري، ابنتها.
ارتسمت الدهشة على وجهه، وغلبه الذهول، فصاح:
– عجباً! إذن... أنتِ شقيقتي؟!
نظرت إليه لورانس في صمت مشوب بالقلق، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها، حيث راودها ظن عابر أنه فقد صوابه، فحاولت أن تزيح هذا الخوف بمزاح خافت خلفه شيء من التوجّس:

– لم أكن أعلم أنني شقيقتك، يا سيد بوريل... كان الأجدر بوالديّ أن يطلعاني على ذلك منذ زمن بعيد!
رنا إليها بعينين حائرتين، وقال بصوت يحمل جرحاً غائراً:
– هل تظنين أنني فقدت صواب؟ أو احتسيت الخمر حد الثمالة؟ أنت واهمة... هذه الغرفة لم يدخلها خمر منذ سنين. أنني فقير، شقيّ، مُتعب... لكنني لم أفقد عقلي. أنا شقيقك... دون أدنى زيف أو مبالغة.
ثم مدّ يده إلى درج قديم، وأخرج باقة من الرسائل، أوراقٌ صفراء نقشتها يدٌ مألوفة بخط أنيق.
ناولها إياها، فتناولتها بأنامل مرتجفة، وعيناها تجولان بين السطور، وقلبها يخفق بعنف، حيث أكدت كل كلمة في تلك الرسائل ما لا يُدحضه شك.
توقفت بين السطور تستعرض قصة مدفونة في غبار السنين:
منذ ثلاثة أعوام، حين كان الأميرال يؤدي مهامه في مدغشقر، غادرت زوجته باريس إلى قرية هادئة في لورين، حيث خلت إلى نفسها في بيت قديم لأسرتها بعيد عن العيون والفضول. وهناك، تعرّفت على جار لها رجل يُدعى دي كورديو... حيث باغتها في لحظة وهن، فاقتحم كيانها، بل حجرتها، واقترف فعلة سوداء، ثم فرّ خائفاً مذعوراً يطارده العار.
لكن العار لم ينفض برحيله، إذ حبلت منه، وولدت في الخفاء طفلاً لا ذنب له، وتركته في عهدة قروي بسيط، ثم عادت إلى باريس تحاول أن تطمر الذكرى، وتدفنها في ركام النسيان.
غير أن دي كورديو عاد لاحقاً، فانتشل ابنه من المجهول، واعترف به، وربّاه بين يديه. وقبل أن يختطفه الموت، ألقى في أذن ولده الوصية الأخيرة:
– إن ضاقت بك الحياة، فالتمس يد أمك... فهي وحدها القادرة على انتشالك من الهاوية.
ثم أردف روبر بنبرة حزينة:
– لقد صدقت نبوءة أبي... ورثت عنه القليل، سَعيت به فلم أنجح، ثم وجدت نفسي على حافة الانتحار، إلى أن تذكرت وصيته. فكتبت لها تلك الرسالة... التي سقطت بين يديكِ أنتِ.
نظرت إليه لورانس، وقد اختلط في صوتها العتب بالحيرة:
– كنت على وشك أن تنسى أن لك أماً، ومع ذلك، مضت أعوام طويلة دون أن تسعى للقائها. لو كنتُ مكانك، لسعيت كل يوم إلى رؤيتها، ورفعتُ يدي شكراً لله في كل حين، لأنه منحني أمّاً مثلها!
أطرق برأسه، وأجاب بصوت متهدّج:
– أفهم ما تقولين... أنتِ تتحدثين عن الأم وكأن حبّها يولد معنا. لكن حبّ الأم لا يُولد، بل يُزرع... ولا يزهر إلا إذا سقته يدها، وراعته بعينيها. أنا لم أعرف أمّاً... فلم أتعلم كيف أحبّها.
ترينها فاضلة، نبيلة، حنونة... أما أنا، فلم أرَ منها سوى الغياب.
ثم التفت إليها وقال بهدوء ينزف ألماً: "هل كنتِ ستُحبينها لو أنكِ لم تعرفيها؟ أو لو أنها نبذتكِ كما فعلت معي؟".
كنت طفلاً لا ذنب له، ومع ذلك عشت مطروداً من كل دفء، مرفوضاً لأنني وُلدت.
إن المحبة البنوية، يا سيدتي، ليست قدراً... بل ثمرة، لا تنمو إلا في أرض رُويت بالحب.
قالت لورانس، بصوت خافت تتخلله الحيرة: "لكنك نسيت شيئاً مهمّاً... أمك كانت متزوجة، فماذا كنت تتوقع منها؟
أجابها، وقد استبدّت به مرارة الأيام:
– لا شيء سوى الرأفة. هي من منحتني الحياة، وذلك وحده يكفي كي تكون مدينة لي بشيء من الحنان.
أنا ابنها، ومن الظلم أن تدير لي ظهرها، أو تنتقم من وجودي.
ثم هزّ رأسه، كمن أُنهك من النقاش، وتنهد قائلاً:
– لا طائل من هذا الجدل... أنتِ ترين الحق فيما تقولين، وأنا أراه فيما أُدافع عنه.
لكِ موقفكِ، ولي موقفي، ولا أحد منّا سيقنع الآخر.
لاذ بالصمت للحظات، ثم تابع بصوت أرهقته الحياة:

– أردتُ فقط أن تعرفي أنني لا أستطيع أن أتابع حياتي بهذا الضيق، بهذا القيد، بهذا الذل.
أكره هذه المدينة، وكل ما فيها، ولا أرجو إلا أن أغادرها إلى حيث لا يعرفني أحد.
لكنني، رغم ذلك، لا أريد أن أرحل خاوي اليدين... أريد مبلغاً من المال، أفتح به باباً جديداً في مكان بعيد، لعلّي أجد بعض الراحة، أو نصيباً من الكرامة.
– وما مطلبك على وجه التحديد؟
– كم كانت البائنة التي منحتكِ إياها والدتكِ عند زواجكِ؟
– في الواقع لا أذكر... ربما كانت نحو ثمانمائة ألف فرنك.
– أما أنا، فلا أطلب إلا القليل... مئة ألف فرنك. أعطني إياها، وأعفيها من كل طلب، حالاً ومستقبلاً.
شهقت لورانس بذهول، وقالت:
– مئة ألف فرنك؟! من أين لي بهذا المبلغ؟
– لا أطلبه منكِ، بل من والدتكِ.
– وهل تظن أنها قادرة على منحه لك؟ أو أنها، إن علمت بأمرك، تستطيع أن تدفعه دون أن تُثار الشبهات؟
قال بصوت حمل نبرة قاطعة:
– هذه ليست مسألة عطف... إنها صفقة. أنا لا أستجدي... أنا أساوم. هي مدينة لي منذ أن وُلدت، وإن حاولت التنصل، فسيكون لي حديث مع الجميع، وسأعلن ما كان على الملأ، بلا خوف ولا تحفظ.
صرخت لورانس، وقد ارتعدت أنفاسها:
– كلا! لا تفعل ذلك! لا تفضحها! إن والدتي ليست مجرمة، بل ضحية! هي، شأنها شأنك، فريسة مجتمع جائر، ونظام قاسٍ حرمها من الاعتراف والتكفير!
– أُقسم بالله، إن لم يتم تدارك الأمر، فسأفعل ما قلت. أنا لا أهدد... بل أطالب بحقي المسلوب.
اندفعت لورانس كمن داهمها فزعٌ غامض، وقالت بصوتٍ مرتجف يشوبه الرجاء:
– لو عرفتُ طريقاً إلى المال، لو كانت بيدي مفاتيح الثروة والملايين، لبذلتها لك دون تردّد. لكن انتظر... سأبحث، سأجد وسيلة مهما كلفني الأمر.
نظر إليها روبر بلا مبالاة، بصوت خالٍ من الدفء، وقال:
– لا يهم من يسعى، أنتِ أو هي، الأهم أن يُحسم ذلك الأمر سريعاً. وإن احتجتِ العون، فاسألي زوجكِ، الكونت دي موري، فهو لا يرد لكِ طلباً.
صاحت لورانس بجزع:
– حاشا لله أن أُفشي له شيئاً! زوجي لا يعلم، ولن يعلم طيلة ما حييت. الموت أهون من أن أفضح سر والدتي الغالية!
– افعلي ما تشائين، لكن أمامكِ يومان فقط.
قالت مستنكرة، وكأنها تصطدم بجدار من المستحيل:
– هذا ضرب من ضروب المحال!
أجابها ببرود:
– دَبّري الأمر. سأنتظركِ هنا، في مثل هذه الساعة، بعد غدٍ.
ردّت بحدّة ورفض يكسوه الألم:
– لا! لن أعود إلى هذه الغرفة التي سمعت فيها أسوأ خبر في حياتي.
– إذن، اختاري مكاناً غيره.
سكتت للحظات، ثم همست:
– أذهب إلى كنيسة سان جيرمان كل يوم. ما رأيك أن نلتقي هناك؟

– حسناً، سأكون هناك، في نفس الساعة، بعد غدٍ.
لكنها، وكأن ظلاً من الشك عبر ذهنها سألته بقلقٍ لم تستطع إخفاءه:
– ومَن يضمن لي أنك، بعد أن تأخذ المال، لن تعود لابتزازي؟ ما الضامن لصمتك؟
– لو أقسمتُ، لما وثقتِ بقسمي. لكن أستطيع أن أرسل إليكِ رسائل والدتكِ... تلك الرسائل وحدها كفيلة بأن تغيّر كل شيء.
نهضت لورانس، وقالت بصوت خافت، كأنها توقّع على اتفاق خفي:
– بعد غدٍ، الرابعة مساءً، في كنيسة سان جيرمان.
ثم خرجت من الغرفة تجرّ قدميها وكأن ثقل العالم يشدّها إلى الأرض، وقلبها يغلي بفوضى لا قرار لها.
في اليوم التالي، توجهت بخطى مرتجفة إلى متجر المجوهرات الشهير في باريس، عند الصائغ المعروف السيد سميث، ذلك الذي ذاع صيته بالصدق والأمانة. كان هو ذاته من ابتاعت من متجره كل مجوهراتها النفيسة، فالتقته هناك، وأفضت إليه بسرّها كمن يفتح جرحاً لا يندم، حيث قالت له بنبرة حزينة لكنها واثقة:
– أحتاج إلى مئة ألف فرنك... دون علم زوجي. وقد أحضرت إليك مجوهراتي كلها، وأرجو منك أن تستبدلها بجواهر زائفة حتى لا يُكشف أمري.
تفاجأ سميث، ثم نظر إلى المجوهرات وقال بعد صمت:
– سيدتي، إن جواهرَكِ تساوي أكثر من المبلغ المطلوب. لكني لا أستطيع دفع المبلغ كاملاً في الحال. أمهليني بضعة أيام، وسأوفيكِ الباقي.
وافقت دون تردد، وقالت:
– لا بأس، سأعود بعد أربعة أيام لأتسلّم الباقي.
وفي اليوم التالي، سارت لورانس نحو كنيسة سان جيرمان تسبقها أنفاسها المضطربة وخوفها المتراكم كغيومٍ سوداء حجبت النور عن قلبها. دخلت الكنيسة بصمت المذنبين، وإذا به ينتظر وصولها، وعيناه تترقّبانها بحدّةٍ لا أثر فيها للرحمة. اقترب منها قائلاً:
– هل جئتِ بالمال؟
أجابت، وقد خفضت بصرها:
– لا...
انعقد حاجباه في غضب، وراح وجهه يتقلّب كبركانٍ قبيل الانفجار، ثم قال بصوتٍ مشوب بالمرارة:
– ومع ذلك وعدتِني! أقسم بالله، لقد خذلتِني. وما لم أفعله منذ يومين، سأفعله في الحال. قبل أن تنقضي ساعة، سأكون عند والدتكِ... وستعلم كل شيء!
ارتعدت لورانس، ومدّت يدها إليه تستعطفه كمن يتشبث بحافة الخلاص، وقالت بصوت مرتجف:
– أتوسل إليك ألا ترفع صوتك! لم أخلف وعدي عمداً... كنتُ مضطرة.
ثم روت له ما جرى في متجر سميث، وكيف رهنت المجوهرات، وأن الصائغ وعدها بإتمام الدفع بعد أربعة أيام.
استمع إليها في صمت، وتردّدٌ ظاهر يتأرجح في ملامحه، ثم قال:
– لا بأس... سأنتظر ثلاثة أيام أخرى. لكن هذا هو الموعد الأخير. نلتقي هنا في نفس الموضع، فإن فاتكِ الحضور، فلن أرحمكِ... ولن أرحم والدتكِ معكِ.
ثم ولاها ظهره وغادر الكنيسة بخطى بطيئة متثاقلة، كأنّ في كل خطوة جزءاً من صبره يذوب، فيما بقيت هي واقفة يعتصرها الذل والغضب، ثم غادرت المكان، وقلبها يغلي كمرجلٍ من الغيظ المكظوم.

الفصل الرابع

في تلك الليلة، احتض منزل الأميرال دي لامارش جمعاً من الأصدقاء، وبينهم كانت الدوقة دي لوقا وشقيقها. وحين دقّت الساعة الحادية عشرة بعد تناول الشاي، انصرف الضيوف مودّعين، وقد أقامت الدوقة في الطابق العلوي، وما إن رأت أخيها حتى قالت بإلحاح:

– اصعد معي.

قال متردداً:

– هناك من ينتظرني الليلة...

فقالت بنبرة صارمة لا تقبل رفضاً:

– قلت لك اصعد، لا رغبة لي في الحديث معك هنا.

وكانت تأمر كأميرةٍ، وكان هو يطيع كخادمٍ أمين. صعد معها دون جدال. وحين انفردا في الغرفة، جلس على أحد المقاعد يتأملها، وقد تواري قلقها خلف خطواتٍ متوترة، ثم قال بنبرة فاحصة:

– يبدو أن الأمور لا تسير كما تودين، أليس كذلك يا عزيزتي؟

وقفت أمامه فجأة، وعيناها تشعّان بغضبٍ مضطرم، ثم قالت:

– قل ما شئت! أما أنا، فلم أعد أرغب فيَّ البقاء هنا لحظة واحدة.

صاح مدهوشاً:

– لم أفهم، أهي الرغبة في الرحيل؟ ولمَ؟

قالت، كمن ينزع قناعاً عن وجه الحقيقة:

– إذا كنت تجهل السبب، دعني أُوضحه لك. أتدري لمَ انتقلنا من منزلنا الأول إلى هذا البيت؟

– بالطبع، أنا من اقترحت، وأنتِ كنتِ مفتونة بحاكم بوندشيري.

قالت بصراحة صاعقة:

– بل كنتُ مفتونة... ومجنونة به... ولا أزال.

ضحك ساخراً:

– إذن، فالحب لم يعد يعنيك كثيراً!

قالت بانفعال: "يا لك من أَحمق! الكونت دي موري يبادلني الشعور، بل ربما هو أشد حباً مما أُظهر له.

– إذا كان الأمر كذلك، فلماذا ترغبين في الرحيل وأنتِ المحبوبة؟

أجابت بحرقة: " لأن أولئك الأغبياء الذين يسمّون أنفسهم أصحاب فضيلة ووفاء يقفون حائلاً بيني وبينه. دي موري يحبني، وقد أسرّ لي بذلك منذ اللقاء الأول، في لحظة دهشةٍ وصراحةٍ نادرة... ثم صمت، كأن بين شفتيه قيداً منعه من النطق، لأنه يعلم أن أول ما سينطق به سيكون كلمات العشق.

قال أخوها مبتسماً:

– ما أجلّه من رجل شريف، إن صدقتِ حدسكِ.

– بل أنا على يقينٍ لا يتزعزع. غير أنه محاصر بقيود اجتماعية وباحترامه لزوجته، يمنعه ذلك من قول ما يجيش به صدره. أما أنا، فأكره تلك المرأة لأنها تملكه... ويحق لها أن تحبه كما يحق له أن يحبها... ولكنني لا أستطيع احتمال ذلك!

نظر إليها بعطفٍ ناعم، وقال:

– هل ترغبين في مساعدتي؟ أتودين أن أكون إلى جانبكِ؟

– وماذا تظن أنك ستفعل؟

– أستطيع أن أُزوّجكِ بالرجل الذي أحببتِه.

رفعت إليه عينيها وقد ارتسمت في ملامحها دهشة ساخرة وقالت:

– هذا محال... إنه رجل متزوج.
فأجابها بنبرة خافتة حملت بين طيّاتها غموضاً مريباً:
– لكن الزوجة... من الممكن أن تُزاح من طريقكِ.
شهقت وقد علا وجهها امتقاع الغضب:
– أجننت؟ أتراني أُزهق روحاً لأبلغ ما أريد؟ أيُعقل أن أنحدر إلى هذا القاع؟
ردّ بهدوء أشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة:
– لا، حاشاي أن أقترح قتلاً. معاذ الله، ولكن... هنالك وسيلة حضارية: الطلاق.
رددت الكلمة بصوت مبهوت كأنها تسمعها لأول مرة:
– الطلاق؟
– نعم، الطلاق. وهنا، في هذه البلاد الغريبة، الطلاق له شأن عظيم، والناس فيه أسرع إلى الانفصال منهم إلى الصبر والبقاء.
تردّدت قليلاً، ثم قالت بصوت حائر:
– قد يكون كما تقول، غير أن الطلاق لا يتم بلا سبب... وزوجته، تلك التي أحتقرها، تحيط نفسها بسور من العفاف لا يُخترق.
تطلّع إليها وهو يلفظ كلماته ببطء، كمن يهيّئ لنبأ صاعق:
– وما رأيكِ إن قدمتُ لكِ برهاناً على أنها ليست كما تتخيلين؟
– قل... أفصح عن مكنونك.
فقال بنبرة انتصار خافتة:
– الكونتيسة دي موري تعشق رجلاً غير زوجها.
صاحت غير مصدّقة:
– لا أصدق! هل لديك دليل؟
– بل أدلّة دامغة. قبل أربعة أيام، رأيتها تسير بخطى متعجلة، فتملكني فضول لم أملك كبحه، فتتبعتها إلى أن ولجت إلى داحل بيت قذر في زقاق ضيّق. مكثت هناك ساعتين، ثم خرجت دامعة العينين.
نظرت إليه، وقد ارتسم الذهول في ملامحها:
– أربعة أيام؟ هل أنت واثق؟
– نعم، أربعة أيام
– إذاً، لم أكن واهمة. يومها زعمت أنها متعبة، واعتذرت عن حضور العشاء.
فقال متابعاً:
– وفي صباح اليوم التالي، خرجت حاملة كيساً صغيراً، ثم قصدت متجراً للجواهر في شارع "لابيه"، ومن هناك، مضت قاصدة كنيسة "سان جيرمان"، وعندئذ التقت بشاب حمل بضعة رسائل. بدا أنه عشيقُ خفيّ، وقد طلب منها مبلغاً فادحاً... مئة ألف فرنك.
قالت وقد عقدت الدهشة لسانها:
– مئة ألف؟ هل دفعت له؟
قال وهو يهزّ رأسه:
– لا، وعدته بذلك، لكنها لم تفِ، فغضب، وهدّدها، أما هي فارتعدت من الخوف.
– لا شك أنه وغدٌ دنيء!
– لا ريب في ذلك، لكن ضعي في حسبانك أن لهذا الوغد الذميم فضلٌ عليكِ. لقد توسلت إليه الكونتيسة أن يُمهلها

يومين، ثم غادرت بخُطى مرتجفة. فما رأيكِ الآن؟
تبدل لون وجهها، واضطرب صوتها، ثم قالت بشوق عاصف تكسوه العزيمة:
– إذا صدقتَ، فسأخلع تاج الدوقة، وأتقلّد تاج الكونتيسة قبل انقضاء ثلاثة أشهر... وسأدعى الكونتيسة دي موري!
وامتد الليل بين الأخوين طويلاً تتخلّله الخطط والهمسات والعهود المبهمة. وحين همّ شقيقها بالمغادرة، رمقته بعين تفيض بالامتنان وقالت بصوت خافت:
– أعدك... أن أجيب أول طلب تطلبه مني، مكافأة على خدمتك الجليلة التي أسديتها إليّ.
تأملها مليّاً، ثم ابتسم وقال:
– لديّ مشروع لم يكتمل بعد، وحين يحين أوانه سأدعوكِ إليه لتكوني لي فيه عوناً، كما كنتُ لكِ الليلة.
وفي ظهيرة اليوم التالي، أرسلت جرجونة رسالة تطلب فيها مقابلة الكونت دي موري. وما لبثتا أن اجتمعتا حتى بدأت جرجونة الحديث ببرود قاطع:
– دعوتكِ اليوم لأخبركِ بأمر لا يليق بمجلسنا... فلا بد لنا من فِراق.
خيم الصمت عليهما، ثم ارتجف الرجل أمامها. لم يكن حبّه لزوجته خافياً، لكنّه ما استطاع إخفاء الرجفة التي سرَت إلى قلبه. استعاد رباطة جأشه قائلاً:
– إن هذا الفراق الذي تتحدثين عنه يورث في نفسي حزناً عظيماً... وأؤكد لكِ أن زوجتي الكونتيسة ستشاطرني هذا الشجن.
قاطعته بنبرة حادّة، وقد اشتعل الغيظ في صدرها:
– لا تذكر لي اسم الكونتيسة دي موري! لا تُحرّك في قلبي ذكرى تلك المرأة التي تكرهني فقط لأنني أحبك... وأنا أكرهها، وإن جهلت سبب هذا الكره!
ثم أضافت وهي تغالب دموعها:
– ما يجرحني ليس رفضك، بل صمتك وأنت ترى قلبي يتهدّم أمامك. لم لا تصرّح لي بما تُخفيه؟ أما زلت تظن أن الحرية شأن القلب لا الميثاق؟
أجابها بثبات لا يخلو من ألم:
– لا... لست حرّ القلب. وإن اعترافي لكِ سيكون خيانة لامرأة لم تنقُصها يوماً صيانة أو وفاء.
صرخت بعصبية:
– كفى! لا تذكر وفاءها أمامي!
تطلع إليها طويلاً ثم قال:
– في قولك هذا تهمة شنعاء، تُشبه الشائعة، بل أشد فتكاً.
قالت بإصرار ينم عن يقين:
– ليست شائعة، بل حقيقة... أطلعني عليها شقيقي.
اتسعت عيناه من هول الذهول، وقد اشتعلت فيهما نار الغيرة، فقبض على يدها وقال بخشونة تفضح اضطرابه:
– تكلّمي! ما الذي تعرفينه؟!
ارتعدت، وسحبت يدها من قبضته، ثم صاحت:
– لا، لن أتكلم... إن أفصحتُ عمّا أعلم، ستهدر دمها!
تراجع الكونت كمن صُعق، وبدت على محيّاه ملامح الذهول المزدوج، ذهول العقل وذهول القلب، ثم تمتم كمن لا يصدق أذنيه:
– أتقولين إنني سأهدر دمها؟! إذاً فهي قد خدعتني؟ كلا... لا أستطيع تصديق هذه التهمة المريبة!
نظرت إليه نظرة طويلة كشفت عن غورٍ من المكر المتماوج تحت سكونها، ثم قالت بصوت هدأ في نبرته، لكنه ظل ينبض

بدهاء لئيم:
– لا بأس... لقد كذبتُ عليك. أردتُ أن أختبرك، فاتهمتُ بريئةً لأرى ما تصنعه يدك إن ظننتها آثمة. رغبت في النفاذ إلى أعماقك لأتبين ما موضعي من قلبك إن خانك الزمان، وفرّغ لك الدرب. والآن، وقد عرفتُ ما أريد، فامضِ، لن نلتقي بعد اليوم.
وقف الكونت مذهولاً يحاول أن يخترق ستار الكلمات بنظره الحائر، ثم حدث نفسه:
– لا تخلو هذه المكيدة من دهاء دفين...
اقترب منها خطوة، وقد حمل صوته نبرة رجل يُجاهد غضبه:
– إن أردت أن تعرفي ماذا يحدث إذا خلا موضع الكونتيسة من فؤادي، فاسمعي! أنا رجل لا يصفح عن الخيانة، ولا يقبل أن يُطعَن في ولائه. أنتِ تعلمين إخلاصي لزوجتي، ولكن إن زلّت قدمُها يوماً، فلن يبقى لها في قلبي سوى الفراغ، لا حنين ولا ندم، وسأقطع الحبل الذي يربطني بها كما تُقطَع السلاسل صدئة بلا رحمة!
وفيما هما يتبادلان هذا الحوار المشتعل، اقتربا من نافذة تطل على الإيوان، وتصادف أن دخل أحد الخدم وفتح الباب، فظهر الصائغ سميث في ثيابه الوقورة.
بادرت جرجونة، وجرأتها تعلو صوتها:
– إن كنتَ تريد الحقيقة، فاسأل هذا الرجل... إنه وحده من يملك مفاتيحها!
أطلّ الكونت من النافذة، وعندما وقعت عيناه على الرجل، أشار إليه يدعوه للصعود، ثم أغلق النافذة واستدعى أحد الخدم، وأوصاه باصطحاب الصائغ إليه. ثم التفت إلى جرجونة بعينين تشتعلان جدية، وقال:
– أجبي بصدق: كيف وصل السر الهائل الذي ترفضين أن تبوحي لي به إلى هذا الصائغ؟
– يحمل السيد سميث مبلغ مئة ألف فرنك إلى زوجتك بعد أن رهنت عنده حُليّها لتفتدي بها رسائل كانت قد كتبتها في زمن مضى.
– إن كان ما تقولين صدقاً، فقد قضيتِ على الكونتيسة، وإن كان زيفاً، فقد حكمتِ على أخيكِ بالهلاك... ولعلّك بهذا القول قد أنقذتِ زوجتي من الاتهام، ولكنك سلّمتِ أنيبال بلميري إلى مصير أسود، فاعلمي أنني غداً سأقتله، أما الآن فدعيني أواجه هذا الشاهد علّني أبلغ الحقيقة الغائبة.
ثم نهض، وتوجّه إلى باب البهو، ودعا الصائغ للدخول. جلس الرجل، وقد بدت عليه علامات التوجس، فاستقبله الكونت بنبرة هادئة لكن مشوبة بانفعال مكبوت:
– لا شك أنك تلحظ في ملامحي شيئاً من التوتر، وذلك طبع يلازمني حين أطلعك على أسرار خطيرة كالسر الذي لك يد فيه.
فقال الصائغ، مستفسراً:
– وكيف ذلك، سيدي؟
ابتسم الكونت بهدوء، ثم أردف:
– نسيت أن أُعرّفك إلى الدوقة...
فأجاب الرجل بأدب جمّ:
– لقد حظيت بشرف لقائها، حين زارت متجري أكثر من مرة، وابتاعت بعض الحُليّ.
قال الكونت: "حسناً، إذن تعلم أنها صديقة مقربة لزوجتي، ورفيقتها في أعمال البرّ والإحسان، وقد أخبرتني منذ لحظات أنك أقرضت زوجتي مئة ألف فرنك بعد أن رهنت حُليّها لديك. ورأت أن تُبلغني بذلك، لأنها تعلم أن زوجتي من النوع الذي يُخفي معروفه ولا يبوح به.
أطرق الصائغ برأسه، ثم قال:
– ما دمتَ يا سيدي الكونت قد تكرّمت عليّ بثقتك، فلن أكتم الحقيقة: أجل، صدقتِ الدوقة، فقد أتتني الكونتيسة،

وطلبت المبلغ، وكان يُفترض أن أُسلمه لها في الغد. غير أن الشخص الذي وعدني بتأمين المال تخلّف، فجئت أطلب منها تأجيلاً قصيراً.
كانت شهادته مطابقة لما روته الدوقة، فتبددت الشكوك من عقل الكونت، وانقشعت الغمّة عن قلبه، لكنه شعر كما لو أن سهماً غاص في فؤاده، فتماسك، وابتسم ابتسامة باهتة قائلاً:
– هذا لا يُغيّر جوهر القضية... لكنني رأيت أن أُيسّر هذا العمل الخيري حتى لا تتعطل نوايا الكونتيسة. وأظن أن الحُليّ لا تزال معك، أليس كذلك؟ هلا أحضرتها؟
– لقد جلبتها معي بالفعل، خشيت أن تغيّر رأيها إن علمت أنني لا أملك المبلغ بعد، فتبحث عن تاجر غيري.
–حسناً، قد تيسّر الأمر برمته. خذ هذا المال، وسلّمه إلى زوجتي دون أن تفصح لها عن مصدره. فهكذا تكتمل نيتها الطيبة، ويُنجز العمل دون أن تغادر الحُلي مكانها.
قال الجوهري مبتسماً:
– الأمر لك، سيدي، وقد أسعدني هذا الحل، لأني في الحقيقة لا أرتاح لمثل هذه المعاملات... وهذه الحُلي بين يديك.
ثم قال الكونت بصوت خافت وهو يرمقه بنظرة نافذة:
– سأوافيك بعد لحظات بالمبلغ المطلوب. اهبط إلى الطابق الثاني، وانتظرني في مكتبي... لكن، إياك أن تفشي سرّ ما جرى بيننا.
انحنى الرجل احتراماً وانصرف، بينما انثنى الكونت صوب الدوقة، وصوته يتمزق من داخله تتخلله تنهدات يائسة:
– إذاً، لقد كانت الحقيقة... خانتني الكونتيسة! أهانتني، ومرّغت شرفي في الوحل. خدعتني، وأنا الذي قاومتُ في سبيلها هوًى جارفاً أنكرته على نفسي، من أجل أن أصون حبها... يا لها من مخادعة!
أشفقت عليه جرجونة، واقتربت تربّت على وجعه:
– لا تحزن... هوّن عليك!
أثّر فيه صوتها، وتذكّر ما لها عليه من دين قديم، وما له عليها من سطوة مشاعرٍ لم تهدأ، فخطر له الانتقام، لا لنفسه فحسب، بل لها أيضاً. قال:
– أجل، إن الغضب قد برد قليلاً... ولكن قولي لي: من هو ذلك الآثم؟ ذلك المجرم؟
قالت مترددة:
– لا أعرفه.
صاح بنبرة مشتعلة:
– لا تكذبي! لا وقت للشفقة، لا مجال للمراوغة! قولي لي اسمه!
– أقسم لك، إنني لا أعرفه.
قال، وقد اشتعلت عيناه بنار العزم:
– إذاً سأعرفه بنفسي. لكن قولي لي، إلى أين يُنقل المال؟
أجابت، وقد استعاد صوتها بعض الاتزان:
– ما بوسعي قوله هو: في الغد، عند الساعة الرابعة، ستلتقي الكونتيسة بذلك الرجل في كنيسة سان جيرمان. وهناك ستمنحه المال، وسيُسلّمها الرسائل.
صاح الكونت:
– في الكنيسة؟! في بيت الطُهر والسلام؟ في الموضع المقدس يُبرمان صفقة العار؟! ويلٌ لهما!
أخفى وجهه بين راحتيه كمن يحاول أن يحجب عن نفسه عاراً لا يُحتمَل، ثم رفع رأسه مستطرداً:
– إلى الغد... ففيه أرصد تلك المرأة، وأتبع خطواتها حتى تراها عيني تعبر عتبة الكنيسة، وتتبادل الرسائل والمال. سأبقى مختبئاً، صامتاً، احتراماً لقدسية ذلك الموضع... لكن حين يخرجان، سيكون لي حساب!

قالت جرجونة، وصوتها يفيض من مرارة دفينة:
– لا تنسَ أنك أقسمت أن تبقي على حياتها.
ردّ، وصوته كالسيف المصلت:
– نعم، لقد أقسمت ألّا أقتلها... لكني لم أقسم ألا أقتل عشيقها! إذاً، سأقصي المرأة، وسأقتل الرجل!
ارتجفت جرجونة، لا من رعب، بل من فرحة خفية متلذّذة، وقالت بنبرة متلهفة:
– وماذا بعد؟ هل تذكر أنني أحبك؟
وبعد بضع دقائق، هبط الكونت إلى مكتبه، حيث وجد الصائغ سميث بانتظاره، فناولَه تحويلاً مصرفياً بمئة ألف فرنك، فابتسم الصائغ، وقال:
– سأذهب الآن للحصول على المال، وأعود إليك سريعاً
– أحسنت، فإن زوجتي يسعدها أن يصلها المال قبل الموعد.
ثم أضاف، وكأنه يُذكّره:
– ولا تنسَ عهدك بالكتمان... مرة أخرى.
في تلك الأثناء، وفي أحد أركان القصر، كان الخادم الهندي "ملطار" يسير بخطوات وئيدة صوب حجرة الكونتيسة، وقد حمل في يده بطاقة زائر، وعندما ناولها إياها، قرأت الاسم، فتجمّدت الدماء في عروقها: ‘‘روبرت بوريل".
ارتعدت فرائصها، وسرى في ملامحها طيف قلقٍ ثقيل، بيد أنها تماسكت، ثم قالت:
– دعه يدخل يا ملطار. ولكن لا تسمح لأحد بدخول هذه الغرفة حتى يغادر.

الفصل الخامس

كانت الغرفة التي دُعي إليها روبرت بورييل تقع في الطابق الثاني من القصر، حيث اختارتها الكونتيسة ووالدتها مكاناً لمكتبهما، حيث تقضيان فيه ساعاتٍ طويلة بعيداً عن الضجيج في تأملاتٍ وحوارات لا تنتهي. ولحسن الحظ، كانت زوجة الأميرال غائبة في تلك اللحظة، ما جعل الجو أهدأ، والمكان أكثر ملاءمة للقاء الذي طالما تمناه روبرت، رغم أن ظروفه بدت غامضة.

وما إن لاح روبرت حتى قوبل بنظرة الكونتيسة الحادة التي لم تخفِ غضبها واضطرابها، وكان صوتها مزيجاً من توتر الغضب وسرعة الانفعال، وقد أخذت تلتفت نحوه وكأنها لا تصدق أنه جاء في هذا الوقت:

– كيف تجرأت على المجيء إلى هنا؟ ألم يكن موعدنا في الغد، في الساعة الرابعة، حيث كنتُ سأُسلمك المال؟ ألم تقسم ألا تدخل بيت زوجي؟ قد يأتي إلى هنا في أية لحظة!

أجابها روبرت ببعض اللامبالاة:

– وما شأننا بزوجك؟ نحن لا نخشاه. لستُ عاشقاً لكِ على أي حال!

– ولكن إن سألني عَنكِ، بماذا أجيب؟

– عليك أن تقولي له إن زيارتي لا تعنيه، وأن تبرهني له على ذلك:

– وكيف أبرّر ذلك؟ هل سأطلعه على الحقيقة؟

– لا شك في ذلك...

– وهل يهون عليّ أن ألقى التهمة الثقيلة على أمي، فأسئ إلى أفضَل النساء لديّ؟ ألا تعلمُ أنني أفضل أن تُنسب إليَّ التهمة بدلاً منها، وأفضل أن أُتهم بعشقٍ، لا أن يُسمح لي بتوجيه اللوم لامرأةٍ نبيلةٍ كأمي؟

فابتسم روبرت وقال: "هذا إخلاصٌ محمود، لكن عليكِ أن تقصري مدة زيارتي إن كنتِ تخشين الخطر".

أجابته ببرود: "تحدّث، ما الذي تريده؟"

– إذا تأخرتِ في دفع المال، ضاعت تدابيري. إذا لم أسدّد غداً قبل الظهر إلى المصرف الأميركي، فإن العقد الذي علّقت عليه آمالي سيُلغى ويضيع.

– ولكنك تعلم أن المال ليس في حوزتي، ولن يُسلّم إلا في الغد.

– نعم، في الصباح. ولهذا أتيت لأقول لك فحسب: لا تؤخري الدفع إلى ما بعد الظهر. سلميه لي المبلغ فور الحصول عليه.

– لا بأس، غداً صباحاً سأحمله إليك...

لكنها لم تتم جملتها، إذ انفتح الباب فجأة، ودخل الخادم قائلاً: "هنالك شخص يُدعى السيد سميث جاء لتسليم سيدتي شيئاً، لكنه لم يرغب في إزعاجها، فطلب مني تسليمها ذلك الشيء الذي كان من المقرر أن يُسلمه الصائغ إليها صباح الغد".

تناولت الكونتيسة منه رزمة الأوراق المالية، فتبدى على وجهها ارتياح، وأدرك روبرت السبب فاهتز داخلياً، إذ رأى الثروة قد وصلت إليه، وكاد ينقضّ على الأوراق ليخطفها ويهرب، لولا أن الخادم الهندي الذي كان واقفاً عند الباب حال دون ما أراد. قالت الكونتيسة:

– أخبر السيد سميث أنني ممتنة له، وسألتقيه في الغد.

لكن الخادم ظل ساكناً مكانه، فقالت الكونتيسة بلهجة حادة:

– ما الذي تنتظره؟

أجاب الخادم بهدوء:

– ترغب والدتكِ في الدخول، وهي في الغرفة المجاورة الآن، وقد وصلت للتو...

فأُلقت لورانس رزمة الأوراق المالية على الطاولة، في حين أن روبرت راح يراقب المشهد في صمت، وفي داخله، تردد شعور

غريب، إذ أدرك أنه على وشك مقابلة والدته. ولكن فضوله الذي انقضَّ عليه جعله ينسى للحظة الأوراق المالية، وراح قلبه يرتجف شيئاً فشيئاً.
دخلت الكونتيسة الأم، وقالت بنبرة هادئة:
– جئتُ قبل الموعد الذي حدّدته لنفسي...
وحين وقع نظرها على الرجل الغريب في الغرفة، توقفت للحظة، وسألت ابنتها:
– ما أنت وحدك؟ إذن أتركك وبعد هنيهة أعود إليك.
لكن روبرت بادرها بتحية مهذبة، وأومأ إليها باحترام، فالتقت نظراتهما، وتبعتهما لحظة من الصمت الثقيل الذي امتلأ بالأفكار المتشابكة، ثم قالت الكونتيسة بصوتٍ خفيض:
– هل تعرفينه؟ إنه السيد روبرت بوريل، يا أمي.
سألت الأم بتوجسٍ ملحوظ: "ألم أرَ هذا الرجل من قبل؟"
أجاب روبرت بلطف وهدوءٍ محاولاً إخفاء توتره:
– لا يا سيدتي، لم أنل هذا الشرف من قبل.
كان صوت روبرت يرتجف، حيث غمرته مشاعر متناقضة من تأثُّر شديد عند رؤية والدته، إذ اجتاحت قلبه أمواج من الاضطراب، فكان لهذا اللقاء وقعٌ جديدٌ على نفسه. لم تَخفَ هذه الحالة على والدة الكونتيسة، زوجة الأميرال، فقالت بابتسامة ناعمة لتخفف من توتره:
– لمَ هذا الانفعال يا سيدي؟
أجابها بصوتٍ خافت يكاد يخفي فيه ارتباكه:
– إنه ناتجٌ عن عظيم تقديري لأعمالكِ الخيرية، وأثرِكِ الذي يمتد ليصل إلى الآفاق البعيدة.
أجابته الزوجة بنبرة رقيقة تنم عن تواضع:
– لا تغالي يا سيدي، فالمرء لا يفعل خيراً إلا بما هو واجب عليه.
فابتسم روبرت ابتسامةً خفيفة مليئة بالتهكم، وقال:
– إن ابنتكِ قد شذت عن هذه القاعدة بشكلٍ لا مثيل له في النبل، فهي الكريمة التي لا تكتفي بأعمال الخير لنفسها، بل تأتي بها نيابة عن الآخرين.
قالت الكونتيسة وكأنها لا تُبالي بما قيل:
– لا أستغرب من لورانس إن فعلت ذلك. حدثني عما صنعته، فهي تتكتم عن حسناتها.
همَّ روبرت بالكلام، لكنه أُوقف فجأةً بتدخل الكونتيسة التي قالت بلهجة قاطعة:
– لا فائدة من ذلك. لا تُخبر أمي بما قلت!
– لا تخافي يا سيدتي، أنا لا أتحدث عن إحسانكِ إلا بما يستحق الإشادة.
ثم التفت إلى زوجة الأميرال قائلاً:
– الأمر يتعلق بوالدةٍ تركت ولدها...
امتقع وجه السيدة دي لامارش، وسألت بنبرة حائرة:
– تركت ولدها؟!
وأراد روبرت أن يبدد أي سوء فهم قد يطرأ على ذهن السيدة دي لامارش، فاستدرك بسرعة قائلاً:
– لا، أعني ابنتها.
ثم تابع قائلاً، محاولاً أن يبرز براعته في الكلام:
– إن ابنة المرأة التي تركتها والدتها قد كبرت محرومة من حنانها، وعاشت في وحدةٍ، حيث اخترق قلبها أشجانٌ لا تُحتمل. لكن القدر أتاح لي أن أتعرف على الكونتيسة دي موري التي أخذت على عاتقها أن تعتني بتلك الابنة المنكوبة، وتعوضها

عن تلك الأم التي شذت عن الأمومة في أقسى صورها...
لكن الكونتيسة الأم لم تدعه يُكمل حديثه، فقاطعته بحدة ممزوجة بشجن، وكأن كلماتها تحمل بين طياتها حزناً مدفوناً:
– تلك الكلمة التي لفظتها عن أم كانت قاسية، بل مؤلمة إلى حدٍ لا يُحتمل. ولعلها يا سيدي، كانت تهمة باطلة. صدقني، أنا امرأة ورثت من الأمهات واجباً قديماً قاسياً يُجبرهن على مفارقة أولادهن بحكم قوانين اجتماعية جائرة. ومع ذلك، لا أحد يستحق الرأفة أكثر منهن.
توقفت لبرهة، ثم أضافت:
– لا شيء أشد مرارة من قلب أمٍ تُنتزع منها مشاعرها، وتحرم من احتضان وليدها... لا تسمع صوته، ولا تستقبل قبلاته، ولا تراه وهو يكبر أمام عينيها. والأسوأ من ذلك، أنها لا تأمل حتى بلقائه مرة أخرى، فتجهل مصيره. وإن كانت تدعو ألا يصيبه شقاء، لكن لا تدري إن كان بعيداً عنها في عذاب أو راحة. يا سيدي، من القسوة أن نُدين أماً منكوبة. فدعنا بدلاً من ذلك نطلب الرحمة لها، ونسأل الله أن يُخفف من أحزانها، ويمنحها قوة على ما تحمّلت.
وعندئذ، تكوّنت في قلب روبرت معاناة لم يكن يتوقعها. لاذ بالصمت، وكأن الكلمات قد تلاشت في فمه، وهو الذي كان يستشيط حنقاً. وللتو، أمام تلك الحقيقة التي لم يكن يتصورها، استشعر قلبه الذي كان يشتعل بالحقد ينطفئ رويداً رويداً.
ثم بصوتٍ منخفض يفيض الحزن قال:
– ولكن كيف يكون حال الأمهات بعد أن يفقدن أولادهن؟ كيف يتحملن هذا الشقاء؟
رفعت الأم رأسها ببطء، وكأنها تسترجع ذكريات مريرة، ثم قالت بصوتٍ هادئ يكاد يخفي وراءه معاناةً طويلة:
– لقد عرفتُ منهن من تقتلها الآلام، ومنهن من تحمل عاراً فادحاً، حتى إن بدت معالمه لكانت سببا في تدمير حياتها.
في تلك الأثناء، أضاء في ذهن روبرت فجأة شعاع من الفهم، فانحسر عنه الغضب، وتراجع إلى صمت عميق، كما لو أن الكلمات قد تلاشت من فمه. أطاحت اللحظة به، فاختفى كل ما كان يود قوله تاركاً إياه في فراغ من التفكير. ثم، بعد لحظاتٍ من الصمت المؤلم، خفض رأسه ببطء صوب والدته، وقال بصوتٍ متردد يعتصره الألم والندم:
– لعل الأمر كما تقولين، ربما أخطأتُ في حكمٍ سابقٍ عليها. لو أنني تعرفت على تلك المرأة التي حدثتِني عنها، أو لو كان في استطاعتي أن أخاطبها كما أخاطبكِ الآن، لقلتُ لها: "إني نادمٌ على ظلمي لها، فأصفحي عني!".
وقد انهار روبرت أمام كلماته، فانحنى على ركبتيه في حركة تلقائية، وكأنما رغب في أن يعيد الزمن إلى الوراء ليصحح أخطاءه، لكنه عجز عن ذلك. انخفض رأسه أكثر، وتحرر من كل أعباء الغضب التي راحت تعتصر قلبه ليقف أمام الحقيقة التي بدت أكبر وأعمق من كل تصورات سابقة، وأمام والدته، حيث تجلى الندم في أسمى تجلياته.
لكن والدته، والتي كانت تراقب المشهد بصمت، رفعت يدها في إشارةٍ رقيقة كي ينهض، وقالت له بصوتٍ خفيض، لكنه مليء بالرحمة التي لا حد لها:
– تكرم، فأعد كل ما سمعته مني على مسامع تلك الابنة التي تركتها أمها، وكنت تدافع عنها منذ هنيهة، لعلها تعدل عن أن تتهم والدتها بالإعراض عنها كما كنت تتهمها أنت.
انصرفت الأم بهدوء تاركةً خلفها لحظةً من الصمت الثقيل. أما الكونتيسة، فقد مدت يدها إلى روبرت برقةٍ، وقالت بصوتٍ هادئ:
– كيف رأيت يا أخي؟
تساقطت دموع روبرت على وجنتيه، وغرقت عيناه في بحور الندم، وهو ينظر إليها كما لو أن قلبه قد انفجر من شدة الأسى، وقال بصوتٍ مكسور:
– من لي بأن أرتمي على صدرها وأن أناديها "يا أُمِّي"! فويحي! لقد كنتُ ابناً عاقاً شقياً، وويل لي أنني لبثتُ ألعنها سنين.
قالت له الكونتيسة محاولةً أن تهدئ من روعه:
– والآن، دعنا ألا نهدر الوقت يا روبرت. المال الذي وعدتك به قد وصل... فخذه، واعلم أنه سيمنحك الثروة الكبرى

التي كنت ترجوها... إليك المال!
لكن روبرت، وقد تحكمت فيه عواطفه، أخرج من جيبه غلافاً يحتوي على رسائل مكتوبة بخط يد زوجة الأميرال إلى المرضعة التي أرضعته، وقد حوت هذه الرسائل على معلومات حساسة تتعلق به، بما في ذلك حملها به. دفع الغلاف إلى شقيقته، وقال بنبرة جادة:
– إليكِ الرسائل.
ثم أبى أن يأخذ الأوراق المالية وقال بعزمٍ:
– كانت الصفقة التي أبرمتها معي معيبة يا لورانس، ولم يكن لي أن أبيع رسائل والدتي بعدما رأيتها، وشاهدت آلامها...
تأثرت الكونتيسة من إصراره، وصاحت بحزمٍ:
– بل خذ المال يا روبرت! فما هو بثمن رسائل أمك، ولكنه من أختك التي أصبحت تحبك الآن.
فصاح روبرت بصدقٍ مؤثر:
– وأنا غدوتُ أحبكِ يا لورانس من صميم فؤادي.
ثم جذبها إليه، وأخذ يقبّلها بشغفٍ وحنانٍ أخوي حقيقي، كأنما وجد في تلك اللحظة شيئاً يعوّضه عن سنواتٍ ضاعت من حياته. لكن فجأة، فُتح الباب ولاح الكونت دي موري.
وما إن سمعت الكونتيسة صوت الباب يفتح حتى تخلّصت من يدي أخيها بسرعةٍ مبتعدةً عنه، في حين أن علامات الاضطراب علت وجهها. وعندما رأت زوجها، قالت بصوتٍ متوتر:
– هذا زوجي!
تقدم الكونت دي موري نحوها، وهو ممتقع الوجه، وقد ناولها صندوقاً صغيراً حوى حليها قائلاً:
– هل تعرفين هذا الصندوق؟
أجابت الكونتيسة محاولةً أن تكتم توترها:
– أظن أنها جواهري فيه.
قال وهو يراقبها عن كثب:
– نعم، وهي التي رهنتِها لتدفعي بها هذا الرجل ثمن الرسائل، ولما كنتِ قد دفعتِ المال ورفعتِ الرهن عن الجواهر، فمن العدل أن تؤول إليّ تلك الرسائل، فسلّميها لي!
وثبَ روبرت إلى غلاف الرسائل، وقد علا صوته غاضباً صارخاً:
– كلا! لن تحصل عليها! إنها لي وحدي، ملكي أنا، ولا حق لأحدٍ في انتزاعها مني.
وقد التقت نظرات الرجلين، وراح كل منهما يرمق الآخر بعين التحدي، ثم جاءت لورانس فوقفت بينهما، وأضفت على الموقف سكوناً متوتراً، وأخيراً قالت بنبرة رجاء:
– أي شكٍ هذا الذي تسلل إلى قلبك، يا روجر؟
أجابها بمرارةٍ وغضبٍ:
– تسألينني بعد أن رأيتك بين ذراعي من يحتضنك ويضمك إليه؟! أطلب إليك رسائل ثمينة تُدفع فيها الأموال الطائلة، فتأبين تسليمها، ثم تجرئين بعد ذلك أن تسألي عن شكي؟ إنك لمجنونة! أعطيني الرسائل!
فصاحت الكونتيسة:
– احرص عليها يا روبرت!
وقف روبرت صلباً في مكانه لا يتزحزح، وقد عقد العزم على الذود عن أمه حتى الرمق الأخير، ولو كلّفه ذلك حياته.
انفجر الكونت غاضباً في وجه الكونتيسة، وصاح في حدةٍ:
– إذا كانت هذه الرسائل هي السلاح الوحيد الذي أرغب في رفعه في وجه زوجتي، فثمة سلاح آخر يمكنني رفعه في وجهك أنت، فاحذر!

أخرج من جيبه مسدساً، فابتسم روبرت في هدوء، بينما أسرعت لورانس تهدئ من اضطرابه، ومالت على زوجها متوسلةً، وتقول في صوتٍ مختنق بالرجاء:
– بحق ابنتنا يا روجر، أنصت لما أقول. ما تطلبه أمرٌ لا يُحتمل! إن أطعتك فيه، أكون خائنة، بل مجرمة!
لكنه صرخ غاضباً، وقد احتقن وجهه، وقال لروبرت بصوتٍ أجش:
– هاتِ الرسائل أيها الرجل، وإلا قتلتك!
رفع المسدس مهدداً، فصاحت لورانس وهي ترتعد هلعاً:
– لا ترتكب جريمة يا روجر! لا تقتل بريئاً! اسمعني، سأحدثك بكل شيء.
فقال، وقد لمعت عيناه بنار الشك:
– هاتِ الرسائل أولاً لأقرأها، ثم قولي ما تشائين.
أجابت بصوتٍ مرتجف:
– نعم، ستقرأها... وستعلم أن من ظننته عاشقاً ليس إلا...
لكن الباب انفتح فجأة، ودخل الأميرال وزوجته، وقد جذبتهما الضجة، فسألا في صوتٍ واحد:
– ماذا جرى؟
فلما رأت الكونتيسة والدتها، تراجعت عن أن تبوح بالحقيقة، وصاح الكونت بصوتٍ حاد:
– حدث أن زوجتي خانتني، وقد ضبطتها بين ذراعي هذا العاشق.
فصاح الأميرال مندهشاً:
– عاشقها؟!
وقالت زوجته في إنكار:
– هذا محال! غير صحيح!
أضاف الكونت بتحدٍ:
– لم أطلب الانتقام الذي يحق لي إلا بعدما رغبت في الاطلاع على الرسائل التي تثبت الجريمة... لكنهما رفضا تسليمها. أما الآن، فنحن قادرون على أخذها عنوة، وسيقرأها الأميرال بنفسه، ويحكم على ابنته، ويُنزل بها العقوبة التي تستحقها.
فقال روبرت في دهشةٍ:
– أيقرؤها هو؟
انتفضت روح لورانس فزعاً، فتراجعت خطوة للوراء، واقتربت من روبرت، وقالت بقوةٍ:
– كلا! لن يكون ذلك أبداً!
ردد روبرت كلمتها، وقد علت على وجهه نظرة حنونة، وكأنما أراد أن يفتدي أمه بحياته:
– ذلك لن يكون أبداً!
انفجر الكونت صائحاً:
– لا بد من أخذ الرسائل، أيها اللئيم!
ثم اندفع الجميع صوب "روبر"، لكن بخطوة سريعة خاطفة، ألقى بالرسائل في الموقد، وتحداهم قائلاً:
– خذوها من النار إذا استطعتم!
ثارت ثائرة الكونت دي موري، فاندفع نحو النار كالسهم، لكن "روبر" كان أسرع منه، وألقى بالرسائل فيها، فاندلعت النيران على الفور، واختفت الأوراق بين اللهب لتحترق في لحظات وتتحول إلى رمادٍ تذروه الرياح.
وعندئذ، تعالت صيحات الكونتيسة، وقد جن جنونه، فأطلق رصاصة استقرت في صدر "روبر" الذي سقط على الأرض مضرجاً بدمائه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، حيث قال بصوت متقطع:
– لقد قتلتني... وما كان بيدي سلاحٌ للدفاع عن نفسي... أنت قاتل أثيم...

ثم خفت صوته، وارتخت جسده، وامتلأ فمه بالدماء ليغادر الحياة تاركاً خلفه كلماتٍ لا تنمحي من الذاكرة.
صرخت "لورانس" من أعماق روحها:
– لقد فارق الحياة!
فرد الكونت بصوت خالٍ من كل مشاعر:
– بقي عليكِ أن تعترفي بما هو خير من الرسائل... دافعي عن نفسكِ إن استطعتِ!
وبينما كانت والدتها تنتحب وتبكي، قالت:
– نعم، تكلمي، قولي الحق!
قال الأميرال بنبرة آمرة، وصوته يعج بالأوامر:
– أنا والدكِ، آمركِ بالكلام!
لكن "لورانس" التفتت صوب والدتها وقالت بصوتٍ حزين يغمره الأسى:
– اسكتي يا أمي، فأنتِ لا تعلمين ما تطلبين مني، ولا تدركين حجم الألم الذي سأعانيه!
صاح الكونت، وقد علا صوته بالتهديد:
– ألا تتكلمين؟
صاحت والدتها، وهي تبكي بحرقة:
– دافعي عن نفسك يا ابنتي! أزيحي عنك وصمة العار يا حبيبتي!
رفعت "لورانس" عينيها نحو والدتها للحظةٍ طويلة، ثم استدارت إلى زوجها، وقالت بثباتٍ عجيب:
– افعل بي ما تشاء يا روجر، اقتلني إن شئت، فهذا حقك الذي يعترف به الجميع، لكنني... لن أنطق بكلمة واحدة.
فصاح قائلاً بصوتٍ هادرٍ كالرعد:
– إذاً فأنتِ مذنبة، وهذا الرجل كان عشيقكِ! فاخرجي من بيتي الآن! إني أطردكِ منه!
رفع والدها يديه إلى السماء، وقال بصوتٍ مزلزل:
– وأنا أستنزل عليكِ لعنة الله!
كانت يديه تتجهان نحو السماء كما لو كان قاضياً، جلاداً، يبحث عن العقاب النهائي.
أجهشت "لورانس" بالبكاء، وضعت يديها على جبينها، وصمتت طويلاً، ثم رفعت رأسها، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة، وقالت بصوتٍ هادئ:
– إنه كان حبيبي حقاً
بدت وكأن عقلها قد اختلّ، والجنون بدأ يتسلل إليها، فلم تكن تدرك ما تفعل، وما تقول. راحت تردد:
– إنه كان حبيبي وعشيقي...
وعندما استُدعيت للتحقيق في حادثة مقتل "روبر"، وقفت مشوشة، مطرقة الرأس، سألها المحقق بصوتٍ هادئ:
– هل تعترفين بعلاقة غرامية ربطتكِ بالرجل الذي قتله الكونت دي موري؟
أجابت بصوتٍ خافت، مليء بالمرارة:
– نعم، أعترف بذلك.
وقد أشار المحقق إليها بالانصراف، فغادرت إلى حجرتها، حيث جلست على فراشها تبكي وحيدة. خرج والدها ووالدتها من المنزل دون أن يلقوا عليها نظرة واحدة، بل إن والدها رفض أن يسمح لأمها بتقبيل ابنتها وداعاً.
لم يبقَ لها سوى خادمة جديدة لا تهتم بها كثيراً، وصديق مخلص واحد، هو الخادم الهندي "ملطار" الذي كان وفيّاً للعائلة، رفيقاً أميناً، والذي ربّى "بوليت" ابنة الكونت وزوجته.
وبينما كان الجميع يعانون في صمتٍ بعيداً عن الأنظار، عاشت "لورانس" في مرارة لا تنتهي، حيث قاست الوحدة والخذلان.

ولنعد الآن إلى "جرجونة" وأخيها، فقد لزما العزلة التامة بعيداً عن الأنظار حتى جاء يوم المرافعة في القضية التي رفعها الكونت ضد زوجته. وطوال هذه الفترة، لم يلتقِ الكونت بالدوقة "دي لوقا" إلا مرة واحدة، وكان لقاؤهما باهتاً، خالياً من أي أثر لتلك النيران التي كانت تشعل قلبيهما في وقت مضى. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك البرود الظاهر، استشعرت الدوقة من تلك اللحظة أن المستقبل لا يزال يحمل لها وعداً قريباً.

قضت المحكمة بتبرئة القاتل بعد أن اعترفت "لورانس" أمام القاضي بأن القتيل كان عشيقها. وعقب صدور الحكم، سارع الكونت، في اليوم التالي، إلى رفع دعوى طلاق ضد زوجته، ولم يمضِ سوى ثلاثة أشهر حتى فُسخ زواجهما دون أن تحاول "لورانس" الدفاع عن نفسها أو تقديم مبررات، وكأنها استسلمت للمقادير، أو أن قلبها قد انهار من شدة الألم.

وبعد يوم واحد من الحكم، تلقت أمراً بمغادرة المنزل. طأطأت رأسها في خضوع، كما فعلت كثيراً في الماضي، وفارقت بيتها الذي كان يوما مهد سعادتها، حيث أنجبت طفلتها الوحيدة، وعاشت فيه أجمل لحظات الحب وأشدها قسوة.

وهكذا، أصبح الكونت "روجر دي موري" حُرّاً، بينما تحوّلت "لورانس" الشهيدة المسكينة إلى امرأة مطلقة تجرع كأس لوعةٍ وعذابٍ مرير دون أن تتقرف ذنباً سوى حرصها الأعمى على سرّ أمها الذي حملته في قلبها على مدار السنين.

الفصل السادس

مرت خمسة أشهر، وتدفق العام 1885 في أفق جديد، حيث اختارت لورانس أن تقطع الصلة بكل شيء، فابتعدت عن زوجها، وقررت أن تسلك طريق الفراق الذي لا عودة منه. وفي شارع فرانسوا الأول، حيث اختارت أن تعيش في منزل صغير، حملت طلاقها معها، ورغم قسوة تلك اللحظة التي حطّمت روحها، إلا أن نصيبها من الثروة، والذي بلغ نحو مليون فرنك، خفف وطأته. لم يكن المال يسعد قلبها، لكن قلبها تحرق شوقاً إلى مساعدة أولئك الذين سقطوا في شِباك الفقر، لعل ذلك يشفي جراحها الممزقة، ويخفف آلامها التي لا تنتهي.

لكنَّ الألم الذي يعتصر قلبها كان يتجدد في كل مرة تتذكر فيها أن والديها اللذين كانا يوماً مصدر قوتها قد رفضا لقاءها. رفضا حتى سماع اسمها. تملكتها الحيرة والحزن، وبدأت تدور في فلك من الندم العميق، ثم تساءلت في يأسٍ: "كيف يمكنني أن أتحمل هذا العذاب؟! لا بد أن أراهما، حتى وإن كان الثمن هو الطرد والمهانة!"

في صباحٍ مشرق، ورغم الحزن العميق الذي كان يثقل صدرها، لملمت شتات شجاعتها وتوجهت إلى منزل والديها. طرقت الباب، وقالت للخادمة بصوت متداخل بين الرجاء والعزة المهزومة: "أخبري السيدة دي لامارش أن ابنتها تتوسل إليها لرؤيتها".

لكن الخادمة ردّت عليها ببرود لا يعكس أي شفقة: "استسمحك عذراً يا سيدتي، لا أستطيع تنفيذ هذا الطلب".

جلست لورانس على درجات السلم، ومرت ساعة كاملة، وهي تنتظر في صمتٍ يختلط بالأمل المكسور. وبعد قليل، خرج إليها خادم البيت، وصوته يرتجف من التأثر، قائلاً: "لا بدّ أن ترحلي، سيدتي. لقد أخبرت الأميرال بوجودك، وكانت والدتك تجلس بالقرب منه. وعندما ذكرت اسمك، قال بلا تأثر: "لا أعرف المرأة التي تتحدث عنها". ثم أمرني الأميرال بأن أطلب منك المغادرة لأنه لا يريد رؤيتك".

غرق قلب لورانس في بحر من الدموع الحارقة، فركض الخادم صوتها يهمس بصوت خفيض: "لكن والدتك... رمقته بنظرة تكاد تشق الصخر، لكن لم تلقَ منه سوى الجفاء، وأشار إليّ بصمت، ففهمت أن عليّ طردك".

نهضت لورانس، وقد حملت على كتفيها جراحاً لا تعد ولا تحصى، وعادت إلى منزلها تتخبط في خيباتها حتى فتحت لها خادمتها الجديدة الباب وقالت لها " هنالك في البهو رجل ينتظر سيدتي، وهو يرتدي ثياب غريبة، ويقول إنك تعرفينه. أدخلته، وهو هناك بانتظارك".

دخلت لورانس، وقد علت الدهشة وجهها، فإذا بها أمام "ملطار" الخادم الهندي الذي طالما كان وفياً لأسرتها. شهقت لورانس بذهول ممتزج بالفرح، فقال لها ملطار: "جئت خفية، لا يعلم أحد بأمري".

ابتسمت لورانس، وهي تمد يدها بكل امتنان: "شكراً لك يا ملطار، فالعالم لا يزال فيه نفوس نبيلة تعطي دون انتظار جزاء".

ثم جلست، وفي صوتها شعاع من الأمل: "تكلم، أخبرني، ماذا جاء بك اليوم؟"

قال ملطار بصوت هادئ ينبعث منه الهدوء الذي يبعث الطمأنينة:

– لسيدتي فضل عظيم عليَّ، ولا أزال أرى فيكِ امرأة لا تستحق ما لحق بها من ألم وحزن، وأعرف أن هنالك أموراً جديدة قد طرأت، لابد أن تعلمي بها.

قطعت حديثه بصوت يغمره الحزن: "وماذا عساي أن أقول، وأنت تعلم أنني اعترفت له بالحقيقة؟".

أجاب ملطار دون تردد: "أجل، أعلم بإقرارك، لكنني لا أصدق صحته".

نظرت إليه بعيون مليئة بالألم، وقالت:

– لقد اعترفت له، فما هي تلك الحوادث؟

قال بنبرة جادة:

– سيدتي، إن سيدي يخطو في طريق الجنون. لقد أضاعه الحزن، وهو مقدم على أمرٍ لا يعقل. أليس هناك من سبيل لثنيه؟

تسارعت نبضات قلبها، فقالت بتلهف:

– أوضح لي، يا ملطار!
قال بصوت متردد:
– سيدي يحب امرأة أخرى... يظن أنها تبادله الحب، وقد عزم على الزواج منها!
فصاحت بصوت متوتر، كأنما وقع عليها ثقل الجبل:
– ولكن ذلك مستحيل!
ثم لمعت صورة الدوقة دي جرجونة في ذهنها، فتهلّلت ملامحها بتساؤل مفاجئ، وقالت بسرعة:
– أيريد أن يتزوج من تلك المرأة؟ أليس الأمر كذلك يا ملطار؟
أومأ ملطار برأسه وأجاب بثقة:
– نعم، هي بعينها.
انتفضت لورانس، وقالت بحرقة:
– هذا سقوط أخلاقي! لقد كنت أرى ذلك، لكني كذّبت بصري، وعاتبت نفسي على سوء الظن! الآن فهمت لماذا لم يصدقني، لأنه كان خائناً منذ بادئ الأمر، لم يُصدق وفاء من منحته سنوات من الحب الصادق!
صاحت، والدموع تتساقط كالمطر:
– فهمت حينها، بكل مرارة، لماذا أقدم على قتل من شعر أنه يهدد شرفه؛ لقد قتله ليخلو له المجال لحبيبته، تلك التي كانت تنتظره في الخفاء. ولم يقتلني أنا، لأن زوجته الثانية لن تطمئن وهي تلتقي جسداً في فراشٍ لطخه دم الأولى. يا إلهي، هذا فوق قدرتي على التحمل!
ولما رأى ملطار اضطرابها قال لها:
– لكن إذا لم يكن اعترافك صحيحاً، فإن سيدي سيندم، ولن يتم هذا الزواج.
هدأت لورانس شيئاً فشيئاً، وساد صمتٌ ثقيل، ثم قالت بتردد:
– هذا صحيح...
وفي لحظات انهيارها، كررت بمرارة:
– لقد كان عشيقي!
ثم انهارت، وسقطت على الأرض فاقدة الوعي من شدة الصدمة.
ظلّ الكونت "دي موري" في منزله بعد رحيل لورانس، وكأن البيت قد دخل في حالة من الحداد الصامت، حيث أضحت جدرانه محملةً بكآبةٍ لا تُخفى، وقد أحاط عبق الموت بكل ركن فيه. لاحظ أنيبال هذا السكون المريب، فالتفت إلى شقيقته وقال:
– خيرٌ لنا أن نعود إلى منزلنا القديم، فإني أشعر أن الموت يحوم حول هذا المكان بعد مقتل ذلك الرجل.
أجابته شقيقته ببرود، وقد أحاطتها مسحة من الفلسفة:
– وهل يوجد عداوة بين الجنود الذين يتقاتلون في ساحة الحرب؟ الحياة نضال، حيث تأخذ أشكالاً متعددة، ومن قوانينها: "ويلٌ للمغلوبين، وهنيئاً للغالبين!".
هزّ رأسه وقال:
– لكننا لم نغلب يا أختي.
أجابته بهدوء واثق:
– فقط، تريث أسبوع واحد.
وفي أحد أيام ذلك الأسبوع، زار الكونت "دي موري" الدوقة "جرجونة"، وكان يبدو وكأنما يسير في نومه، يردد كلاماً غير مترابط، وعينيه غائبتين وروحه ممزقة بين ماضٍ لا يُنسى وحاضرٍ لا يُحتمل. نظرت إليه جرجونة بدهشة بالغة، ولكن قلبها امتلأ بالفرح، فانتظرت حتى بدأ يتحدث، وعرض عليها الزواج بكلمات متعثّرة، أقرب إلى البوح منها إلى الطلب. وافقت،

وأظهرت قبولها في صمتٍ لا يقل عن الكلام ذاته، وقد شاركت في ترتيب الزفاف على عجل.
لكن الكونت، وإن كان ظاهره يدعو إلى الزواج، فإن باطنه أضمر رغبةً أخرى لا تُروى إلا بالانتقام. أراد أن يطفئ نار الغدر بنارٍ أشدّ، وأن يمحو الذكرى القديمة بأن يضع امرأةً أخرى في مكان "لورانس" ليُسمّيها باسمه، ويغطي جراحه بغطاءٍ زائف.
وفي غضون ثلاثة أسابيع، كانت الزينة قد شاعت في أرجاء القصر، وصار الزفاف على مقربةٍ من التمام، لكن الكنيسة، بنظامها الصارم، رفضت أن تبارك ذلك الاقتران، فالمذهب الكاثوليكي لا يعترف بالطلاق، ولا يقبل أي مبرر، بما في ذلك الخيانة. وعندئذ، اضطرّت الدوقة إلى قبول العقد المدني على مضض، وقد امتلأ قلبها بشيء من التمرد. قالت لأخيها بشيء من التحدي، وقد تصاعدت نبرة الصوت لديها:
– لو أردتُ، لتزوجت عشرة عشاق أو أكثر، دون أن أسأل إذن رجال الدين. غير أن الزوج وهو واحد يخيفني ولا أدري لماذا؟!
ومنذ تلك اللحظة، أصبحت تعرف باسم "الكونتيسة دي موري"، ومرت الأمور سريعاً، كما يمر البرق في سماء صافية لا يترك وراءه إلا الأثر العابر. أما لورانس، فما إن بلغها خبر الزواج من خلال ملطار، الخادم الهندي المخلص، حتى أصابتها الصدمة. اهتز كيانها، وكأنما هبّ ريح بارد غمر عظامها، فاشتعل فيها المرض، وامتدت بها الحمى أياماً طويلة، فظلت حبيسة الفراش حتى أيأس الطبيب من حالتها. ولكن بعد أسبوع من الزواج، بدأ جسدها ينهض رويداً رويداً، وكأن آلامها قد تلاشت ليحل محلها سكون غريب.
ومع بداية هذا الزواج، تبدلت أجواء منزل الكونت دي موري بشكل لافت، فأصبح القصر يضج بالحياة. ازدحمت أركانه بالخدم، وأقيمت فيه الحفلات، وامتلأت إصطبلاته بالخيول والعربات، وزُينت درجاته بالزهور والريحان، وكأنما الحياة قد دبت فيه من جديد. وقد كانت الكونتيسة الإيطالية، بذكائها وجمالها، وراء كل ذلك التحول، فقد قررت أن تترك بصمتها وتثبت نفسها في عالمها الجديد.
غير أن الكونت، في غمرة هذا الصخب والمجتمع، لم يجد السعادة. ظل قلبه مشدوداً إلى الماضي، فعزل نفسه في حجرته الخاصة بعيداً عن كل ذلك البهرج. وقد أعاد الحديث الداخلي بينه وبين نفسه له صور لورانس التي لم يكد يستطيع نسيانها. كانت تطوف في ذهنه، وتنهش قلبه، حتى وإن كان جالساً وسط الضجيج.
وفي مساء هادئ دخل عليه ملطار، وقال بنبرة هادئة تعكس إصراراً وحسماً:
– أرجو أن تلتمس لي العذر يا سيدي إذا تجرأتُ على القول: لقد عزمتُ على ترك هذا المنزل.
لاحت الدهشة على وجه الكونت، فصاح متسائلاً:
– ولماذا؟ أوضح لي، يا ملطار.
فأجابه الخادم بوقارٍ ممزوج بالأسى:
– ما جرى من حوادث أدى إلى طرد الخدم القدامى واستبدالهم بآخرين. لعل من العدل أن يسري القرار عليّ أنا أيضاً.
عبس الكونت وقال:
– لا، أنت لست مثلهم. تركك لنا سيكون ظلماً، ظلماً منا، لا منك.
رفع ملطار عينيه إلى سيده، وقال بصوتٍ ثابت يقطر يقيناً:
– سيدي يتحدث عن الظلم، والله يعلم أنني لا أرغب في تركك. ولكنني أريد أن أكون في خدمة شخص آخر مظلوم... مظلوم حقاً.
فزع الكونت، وقال باستنكار:
– هذا غريب! أأنت وفيٌّ لتلك التي دنست نفسها بالخطيئة، وتلطّخت بالعار؟!
قال ملطار بهدوءٍ عميق:
– أما أنا، فلا أظن أن سيدتي لورانس آثمة، ولا أرى أن ذلك الثوب الذي زعمتَ أنه ثوب خزيٍ وعار يليق بها. بل أراه

ثوب ظلمٍ فُرض عليها.
اهتزّ الكونت، وقال بصوت مضطرب:
– أنت فقدت صوابك حقاً! ومع ذلك، كنت شاهداً على ما حدث، ورأيت بغضبي وكنت حاضراً حين وقع الانتقام!
قال ملطار بحزن:
– نعم، كنت هناك. كنت شاهداً، لكني رغم ذلك... لا أصدق ما تصدّقه. ما رأيته لم يكن الواقع. وعلى سيدي أن يذكر أيضاً صوت مدام لورانس، إذ كان متغيراً، وكأنني لم أسمعه قبل ذلك الحين... وكان الجنون واضحاً في عينيها، وقد رأيت بصرها، وسمعت صوتها حين نقلت إليها خبر زواجك. كان الجنون ظاهراً في نطقها، وكان البصر جلياً. مما زادني يقيناً فيما كان يُختلج في روحها، هو أن المسكينة مرضت مرضاً ثقيلاً كاد يودي بحياتها. ولكن، شاء الله أن يُشفى جسدها، إلا أن الألم ظل محفوراً في قلبها، فصارت تتكلم عن ابنتها لتجد رابطة بينها وبين الوجود، كأنها تبحث عن شعاع يضيء ظلمات روحها.
ثم تابع ملطار، وعيناه تمتلئان بالدموع، وقال:
– سيدي، أنها لا تجد من تحدّثه عن ابنتها سواي، لأن الجميع قد تخلّوا عنها... حتى والديها، طرداها من عتبتهما.
وعندئذ، بدت دموع الكونت على وشك أن تسيل، فتماسك، وأشاح بوجهه جانباً، ثم خاطبه بصوت هادئ، كأنما يودع جزءاً من نفسه:
– إني، باسم بوليت، أستحلفك ألا تبرح هذا البيت.
رفع ملطار رأسه بدهشة، وقال:
– باسم الآنسة بوليت؟
أجاب الكونت بصوت خافت، مع تقلبات الذكرى في قلبه:
– نعم، إنها قادمة إلى فرنسا. كنت في انتظار خبر وصول الباخرة إلى مرسيليا اليوم.
فارتعد ملطار، وكأن الصدمة قد أوقعته، وقال:
– سيدتي الصغيرة آتية؟!
فأومأ الكونت برأسه، وقال:
– نعم، بعد يومين أو ثلاثة ستكون بيننا. ولكن، حين تدخل هذا المنزل، لن تجد فيه من تحبه سوى أنا... لن تجد إلا الأطلال التي خلّفتها أيام طفولتها مع والدتها، وقد غاب الدفء، وانطفأ الحنان.
تنهد الخادم وقال بأسى عميق:
– مسكينة بوليت... كم هي مسكينة!
فقال الكونت، متأملاً، وقد خنقته الذكرى:
– صدقت... إنها مسكينة بحق، تستحق من الرثاء ما لا تستحقه يتيمة سواها، لا سيما وقد علمت بمصيبتها الكبرى في الأيام القليلة الماضية.
فغمر الذهول وجه ملطار وقال:
– كيف لم تعلم قبل ذلك؟
أجاب الكونت، وهو يزفر كمن يثقل صدره سرٌّ دفين:
– لأن جسدها كان واهناً، وروحها هشة، فلم تجرؤ شقيقتي على مصارحتها بالنبأ الفاجع خشية أن يهدم ما بقي لها من صحة. فلما بدأت تتماثل للشفاء، أنبأتها بالحقيقة حتى لا تدخل هذا البيت وهي تأمل أن تلاقي فيه أمها... وربما أُخبرت اليوم.
فأطرق الخادم رأسه وقال بحرقة:
– وارحمتاه لها! ربما علمت اليوم فقط أن مكان أمها شغلته امرأة أخرى... آه يا سيدي، ما أشأم لقاء بوليت بـ...

توقف عن الحديث، إذ لم تطاوعه الكلمات أن يُتمّ ما بدأ، فتنهد الكونت بحزن وقال:
– نعم... وكنت أعوّل على دعمك في مواساتها، ومؤانستها في هذه الدار التي كانت تُزهِر بضحكاتها.
ثم أضاف، وقد تحوّلت نبرته إلى عتاب رقيق:
– لكن، ما دمت قد عقدت العزم على مغادرة هذا المنزل، وترك ابنتي تواجه الغدر والهمّ وحدها، فامضِ في طريقك... لن أصدّك.
رفع ملطار رأسه، وقال بهدوء يشبه الوعد:
– لا يا سيدي، فإني باقٍ الآن.
وعندئذ، مدّ الكونت يده إلى خادمه، فقبّلها ملطار بحرارة، بلّلها بدموعه، كأنما يُجدد بها عهد الوفاء.

* * *

ألا يزال قارئي العزيز يذكر الكلمة التي قالها أنيبال بلميري لشقيقته حين حدّثها عن احتمال زواجها من الكونت دي موري مقابل وعدها بتقديم العون إذا تحقق رجاؤها؟ كان أنيبال رجلاً لا يُجهد نفسه كثيراً، يتّسم بالكسل المترف، لكنّه إن عزم أمراً، أعدّ له عدته، ولو على مهل.
وقد طلب ذات يوم مقابلة الكونت عقب سباق جرى في ميدان "أوتيل"، وحين اجتمعا قال له بصوت أخفى وراءه غرضاً ما:
– لدي أنباء جديدة عن منجم الذهب الكائن في "ريونجرو"، ذلك المنجم الذي اقترحتم أنتم – مع الماركيز دي ستناي والجنرال دي سنروني – تولّي إدارته. لقد خدعكم أولئك الماليون، وأوهموكم بأن المنجم غني، بينما هو لا يساوي أكثر من عشرين ألف فرنك!
لم يُبدِ الكونت اهتماماً، وأجاب بهدوء الواثق:
– إذن، أكون قد خسرت ألف فرنك، وينتهي الأمر عند هذا الحد.
لكن أنيبال استأنف الحديث بنبرة أكثر حذراً:
– الأمر لا يتوقف عند هذا الحد عزيزي الكونت، فقد حصل المساهمون على براهين قاطعة بأن السبائك التي نسبتموها لمنجم ريونجرو إنما جاءت من منجم آخر...
اتسعت عينا الكونت، وانحبست الكلمات في حلقه، ثم قال بصوت مدهوش:
– ذلك كذبٌ مشين!
أجابه أنيبال:
– أجل، والأدهى من ذلك أن المساهمين قرروا تحميلكم أنتم الثلاثة المسؤولية، ورفعوا شكوى إلى الحكومة يتهمونكم فيها بالخداع والتزوير.
صاح الكونت، وقد اشتعل الغضب في وجهه:
– ومن ذا الذي يجرؤ على هذا الاتهام الكاذب؟ من يتهمنا نحن بالسرقة؟!
قال أنيبال محافظاً على بروده:
– لا يهتمون بمن الفاعل، ما يعنيهم أن التبعة تقع عليكم جميعاً، وقد حددوا مبلغاً لا مفر من دفعه: مليون فرنك، إن أردت الخروج من هذا المأزق بشرفك سالماً.
تبدّل لون الكونت، وانسكب العرق البارد على جبينه، ثم قال بنبرة جمعت بين السخرية والارتياح:
– من حسن الحظ أن المبلغ ليس كبيراً بالدرجة التي أعجز فيها عن دفعه.
فأطرق أنيبال برأسه، وقال بصوت فيه نبرة أسف:
– يسرني ما أسمعه منك؛ لأنني غير مطلع على شئونك المالية، وكنت خائفاً من أن تكون عاجزاً عن تحمل تلك الخسارة
– لقد شاءت الأقدار أن أستثمر أموالي في الهند، وعندما انفصلت عن ابنة الأميرال غريمين دي لامارش، كانت ثروتنا

المشتركة قد بلغت مليوني فرنك. وكان نصيب هذا المنزل من تلك الثروة يُقدَّر بأربعمائة ألف فرنك، فبقيت لدينا مليون وستمائة ألف. دفعتُ منها لابنة الأميرال ثمانمائة ألف فرنك، أما الباقي، وهو حصتي البالغة ثمانمائة ألف فرنك، فقد أودعته في خزينة المصرف الهندي المرسيلي لحسابي الخاص، وعلى الأقل في غضون أسبوعين سيُرد إليَّ هذا المال. لستُ مبالياً إن ضاع كله، ما دامت ابنتي ستظل طاهرة، لم يمسسها سوء.

– بوسعك أن تصنع لابنتك ثروة أعظم من تلك التي تضحي بها من أجل شرفها.

أجاب: "وما معنى هذا الكلام؟"

– معناه أنني أملك ملايين عديدة، فهل تأذن لي أن أشارك ابنتك في ثروتي، على أن أخطبها منك؟

تراجع الكونت دي موري في مقعده، كأنما نزلت صاعقة على رأسه، ولم يصدق ما سمعته أذنه، ثم تماسك وقال بصوت يعلوه الارتباك: "أنت تطلب أن تكون زوج بوليت؟ وأنت شقيق..."

توقف، فأكمل أنيبال حديثه قائلاً: "نعم، شقيق زوجتك، ولا أنكر أن الآنسة بوليت قد تجد في ذلك اللقب ما ينفرها، ولكن بوسعك أن تعتمد عليَّ وعلى أختي في استمالتها إلينا".

قال الكونت، وهو في حالة من الذهول: "ولكنك لا تعرف ابنتي!".

ابتسم أنيبال وقال: " ليس ذلك بالأمر المهم بالنسبة لي. يكفيني ما أراه كل يوم من تعلقك بها، ومحبّة من عرفوها، وإخلاص بعض الخدم لها... وأعني بذلك ملطار. أما جمالها..".

وعندئذ، تناول صورة من فوق مكتب الكونت لبوليت، وقال وهو يتأملها: "هذه الصورة تشهد على حسنها، ولطالما نظرتُ إليها معجباً بصاحبتها. إذن، فاعلم يا عزيزي أنني مغرم بالآنسة ابنتك، وقد جئتك خاطباً إياها".

أجاب الكونت، وقد علت وجهه علامات الحيرة: "إن إقدامك على خطبتها في مثل هذه الظروف الحرجة يوجب عليَّ شكرك، ولكنني لا أستطيع أن أجيبك إلا بعد قدوم بوليت، فهي ستصل إلى هنا بعد بضعة أيام، ولها أن ترى رأيها في الجواب".

وبعد قليل، دخل أنيبال إلى غرفة شقيقته وأخبرها بما فعل، فصاحت في وجهه مذهولة: "لكن هذا جنون!".

قال بهدوء يشوبه التحدي: "وهل قلتُ لكِ إنكِ مجنونة حينما كشفتِ لي عن هواكِ وشغفكِ بالكونت دي موري، وأخبرتِني أنكِ على استعداد لدفع الملايين لتتزوجي به؟"

– ولكن ليس بين الحالتين من تشابه.

رد قائلاً: "أنتِ أردتِ الاقتران بالكونت عن هوى وعشق، أما أنا فسأتزوج الآنسة بوليت عن تعقل وتبصر، لأنني أتمنى أن أفتح بيتاً صغيراً بين هؤلاء القوم الذين اختلطنا بهم، ولا يخطر ببالهم التحري عن ماضينا. بوليت تلائمني وتصلح لي؛ لأنها فتاة تكاد تكون بلهاء، لا تعرف شيئاً من أحوال الناس وشؤونهم، ولا تهوى أحداً، ولا يستحيل أن تفتتن بي. فضلاً عن ذلك، فإن والدها زوجكِ، ولا يقسم إلا بكِ. ومن محاسن التوفيق أنه مشرف على الإفلاس، وهو محتاج إلينا لدفع ديونه..".

– هذا صحيح، وكدت أن أنسى! فهل ثبت النبأ السيئ الذي نقلته إليَّ عن منجم الذهب؟

– بلا شك، وها هو المصرف الهندي المرسيلي الذي أودع فيه أمواله مفرغ من الإفلاس التدليسي.

– إذن أصبح روجر مفلساً؟

– أجل، إلا إذا لجأ إلى صهره "العبد الفقير" الماثل أمامكِ، والله إن حسن حظه قد وفقه إلى التعرف بنا!".

وقد صدحت ضحكته.

بعد مضي ساعة على تلك المحادثة، دخلت الفتاة إلى مخدع الكونت دي موري ممسكة بيد رجل مسنّ، وقالت له:

– تعال إلى هنا يا سيد دراك، هذا هو مخدع والدتي

وكانت الفتاة هي بوليت.

الفصل السابع

لنعد الآن إلى السبب الذي جعل الفتاة بوليت تصل إلى منزل والدها في شارع فارين في باريس دون أن يعلم بذلك مسبقاً، إذ كان الكونت دي موري، والدها، لا يعلم حتى ما إذا كانت قد وصلت إلى مرسيليا أم لا، ناهيك عن أن يدرك دخولها المنزل في غيابه، ودون أن ترافقها عمتها باسيلِيك كما هو المعتاد، بل كانت برفقة رجلٍ غريبٍ لم تُكشف هويته بعد يُدعى السيد دراك.

ولكي نصل إلى فهم دقيق لهذه العودة المباغتة، فلا بد أن نعود قليلاً إلى الوراء. في تلك الأيام، كانت بوليت في الهند، وهي في حالة صحية هشة بعد مرضٍ ألمّ بها. وعندما حدث افتراق والديها، آثرت عمتها أن تُخفي عنها هذا الخبر بناءً على نصيحة الطبيب روبلين الذي كان قد أوصى بعدم إخبارها حفاظاً على صحتها قائلاً: "يجب أن نكتم هذه الفاجعة عنها، لأن صحتها ما زالت ضعيفة ولا تحتمل مثل هذه الصدمات. قد يؤثر هذا الخبر على حياتها وقد يُفقدها توازنها". ومع بداية تعافي بوليت، قرر الطبيب أن تسافر رغم معارضة السيد جاستون دي فالييز، نائب الحاكم الذي كان يكنّ لها مشاعر إعجابٍ طويلة، غير أنه لم يجرؤ على البوح بها. كان الطبيب روبلين على علم بميل جاستون نحو بوليت، فأخبر عمتها باسيلِيك بذلك، مما دفعها إلى التفكير في خطة لنقل هذا الخبر إلى والدي الفتاة فور وصولها إلى باريس. وقد قالت لعزيزها جاستون مطمئنة إياه: "لا تقلق يا عزيزي، سأبذل كل جهدي لتحقيق ما ترغب فيه".

وهكذا، سافرت العمة باسيلِيك مع ابنة أخيها، وهي تماطل في إخبارها بما حدث بين والديها خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على حالتها النفسية، بيد أنها خشيت في الوقت ذاته من أن تسمعه بوليت على لسان أحد ركاب السفينة فينقضّ عليها الخبر كالصاعقة، فتُصاب بصدمة قوية. لذلك، تبنت العمة تدبيراً آخر يتضمن الحفاظ على تماسك ابنة أخيها، حيث كان من بين العائدين إلى أوروبا على متن تلك السفينة رجل إنجليزي يُدعى إيليا دراك، وقد قضى ثلاثين عاماً في الهند، ثم قرر العودة إلى أوروبا ليعيش بقية عمره في راحةٍ تامة بعد سنواتٍ من العمل الشاق. كان رجلاً ثرياً، لا عائلة له ولا أصدقاء، يعيش من أجل نفسه فحسب، مثلما أعتاد أن يردد دائماً، وقد عمل في التجارة في كلكتا وشغل منصب القنصل هناك. وعلى متن السفينة، تعرّفت العمة باسيلِيك عليه عن طريق قبطان السفينة، فانبهرت بطيبته ونقاء سريرته، وصارحته بمخاوفها من أن تعلم بوليت بما وقع بين والديها من طلاق. وعدها إيليا بأن يمد إليها يد العون، لأنه كان يعرف جميع ركاب السفينة، فحذّرهم من الخوض في الحديث عن حاكم بوندشيري، والد بوليت، وما جرى بينه وبين زوجته، إذ كان الطلاق قد أصبح حديث المدينة وانتشر إلى الجميع.

ورغم تردده الذي كاد يشل خطاه في بادئ الأمر، رضخ إيليا دراك أخيراً، وقَبِل مد يد العون، لا بدافع الواجب فحسب، بل لأن قلبه أخذ ينحني بخشوع أمام تلك الفتاة الرقيقة، بوليت، والتي أخذت تقترب من وجدانه كما تقترب الشمس من نوافذ الشتاء الباردة، على الرغم من سنوات عمره التي أثقلت كاهله، ورغبته العميقة في الفرار من صخب الحياة والناس.

وحين بدأت السفينة تقترب من سواحل مرسيليا، انفجر البحر في نوبة هياج عنيف، فاهتزت السفينة كما تهتز ريشة بين أنامل الريح، واضطر الجميع إلى ملازمة غرفهم، بينما أُمرت السفينة أن تبقى بعيداً عن الميناء تنتظر هدوءاً لا يأتي. أما بوليت، فما إن سمعت أن الوصول إلى مرسيليا بات وشيكاً حتى تسلل إليها شعور غريب كخفق قلب غريبٍ في صدرها، فقد تيقنت أن والديها سيقهران العاصفة ليكونا أول من تستقبل عينيه عند الشاطئ، يتطلعان إلى دخول السفينة إلى الميناء بشوقٍ يكاد يقتلع روحيهما من جسديهما.

تقدّمت بوليت إلى عمتها باسيلِيك ترجُوها الإذن بالصعود إلى ظهر السفينة لتقترب من مرسيليا بعينيها قبل أن تطأها بقدميها، وعرفت العمة ما يدور في خلَد الصغيرة، فهمت حنينها ولهفتها، لكنها لم تردعها، ولم تحاول إيقافها، بل قالت في سرّها: "إن خيبةً صغيرة كأن لا تجد والديها على الرصيف قد تكون السلّم الأول الذي نهبط عليه إلى قاع الحقيقة، فالألم إن بدأ برفق، يسهل احتماله حين يشتد". وهكذا رتّبت الأمور بصمت الحكمة ورقّة الحب تتحين اللحظة التي يُفتح فيها الباب الكبير للبوح.

صعدت بوليت وعمتها إلى ظهر السفينة، وبينما راحت الأمواج تضرب جنباتها كطبول حرب لا تهدأ، توغلت لحظات

الانتظار في أعماق القلوب، وتلفّتت بوليت تنادي السيد دراك:
– ألن تأتي معنا؟
– إلى أين؟
قالت بصوت تغلّفُه النعومة ويشحذه الإصرار:
– إلى ظهر السفينة كما أخبرتك... ألم أُعلِمك أنني سأصعد إليه حين نصل مرسيليا؟
هزّ رأسه ببطء قائلاً:
– نعم، أذكر أنكِ قلتِ ذلك... لكنني لا أرى في الأمر ما يستحق المجازفة بحياتنا، فالجنون بعينه أن نلقي بأنفسنا في وجه هذه الأمواج التي تكاد تبتلع السفينة!
فقالت بوليت، وقد بدا تصميمها على محياها كما يبرز ضوء القمر وسط غيوم كثيفة:
– بل انهض، ولا تتردد! تعال معنا، فلتتبلل ثيابك، ولا تكن جباناً ينأى عن الخطر!
ردّ بصوتٍ مرتجف:
– لكنكِ قد تنزلقين وتُجرفين إلى البحر...
– بل سأثبت قدمي، وأتشبث بذراعك، فلا تخف عليّ. هيا بنا!
وانطلق الثلاثة، العمة وبوليت ودراك، يتشبثون بكل ما تقع عليه أيديهم من أعمدةٍ وسياجات، ويتحدّون الريح والموج. وما إن بلغوا السطح حتى انشق أمامهم مشهدٌ يخطف الأنفاس نسي معه الجميع عصف الريح وغضب البحر، فقد كانت السفينة تمضي كجواد بريّ يعدو في ميدانٍ لا حواجز فيه، حيث تحيطه زرقةٌ مترامية كغابة بلا نهاية، تتصاعد ثم تهبط، كما لو كانت تقفز من ذروة جبل إلى قاع وادٍ لا يُرى.
ولمّا بدت تباشير الأمل في الأفق مع تراجع حدة العاصفة، وبدت مرسيليا كحلمٍ يوشك أن يتحقق، إذا بموجة عاتية كجدارٍ من الماء تندفع صوبهم فجأة، فتهدر على ظهر السفينة وتغمره، وتطيح بكل شيءٍ فوقه.
وفي اللحظة التالية، دوّى صراخٌ هزّ أركان السفينة... صرخة بوليت التي اختطفتها الأمواج من بين ذراعي الحياة!
وما إن سمعها دراك حتى ألقى عن جسده أثقاله، ورداءه، وألقى بنفسه في لجّة البحر دون أن يسمح لعقله بالتفكير لحظة، كان جسده قد سبق روحه، وتمتم لسانه كأنما يصرخ بالغضب في وجه القدر.
وبعد لحظاتٍ من التوتر المطبق، بدا دراك طافياً على السطح، وعيناه تلمحان قطعةً من ثوب بوليت تتمايل فوق الماء، فاندفع نحوها بكل ما فيه من قوة يخرق طريقه بين الأمواج حتى أمسك بشعرها، فشعرت بوليت بيده، وتشبثت به كما تتشبث الروح بالحياة.
وفي قلبه، ارتجت الكلمات:
"لو أفلتُّها الآن، قد أظفر بالنجاة، لكنها ستغرق... ولكن إن تركتُها تغرق، فإن طيفها سيلاحقني ما حييت، ويمنع عني النوم والسكينة!" ثم قال لنفسه بعزم صامتٍ كصوت الأعماق:
– إما أن أخرج بها حيّة... أو أغرق معها!
وشرع يشق طريقه صوب النجاة، فيما كانت بوليت، رغم ضعفها، تتشبث به كمن وجد الأمان في العاصفة. ولحسن الحظ، رآهما النوتية من على ظهر السفينة، فألقوا زورقاً في الماء، وتمكّنوا من انتشالهما معاً.
كانت بوليت قد فقدت وعيها، وكذلك عمتها التي خرّت باكية مغشياً عليها حين رأت ابنة أخيها بين الحياة والموت.
ولما عادت الحياة إلى ملامحهما، التفتت بوليت إلى عمتها بعينين يملؤهما الرجاء، وقالت:
– أريد الهبوط إلى البر، لا شك أن والديّ ينتظراني، وقد رأيا ما حدث لي...
اضطربت العمة، وارتبك قلبها، ولم تجد ما تجيب به، فقد خنقها الصمت في لحظةٍ لا تحتمل الصمت.
وفيما هما تهبطان سلّم الباخرة، التقت عيناهما بعيني السيد دراك. وعندئذ، تذكرت بوليت من أنقذها من الغرق، فأسرعت نحوه، واندفعت بعفوية نحو صدره، ممتنة، متأثرة.

غير أنه تراجع خطوة، ودفعها عنه برفقٍ خشن، وقد أخفى اضطرابه أسفل قناع الجفاء الإنجليزي الذي طالما احتمى به، وقال ببرود لا يخفي رجفته:
– لا أفهم سبب هذا التأثر.
ثم أضاف، بلهجة متحفظة:
– انتبهي لنفسكِ أيتها الآنسة، فهذه هي المرة الثانية التي تُبللين فيها ثيابي منذ أن شرفت بمرافقتكِ!
فأجابته، وعلى شفتيها ظل ابتسامةٍ تشرق من قلبها:
– حين ألقيتَ بنفسك في الماء لأجلي، لم تفكر في ثيابك، والآن تشتكي من تبللها؟ لقد أنقذتني من الموت يا سيد دراك، وآهٍ... كم سيكون حب والديّ لك كبيراً حين يعلمان المعروف الجزيل الذي أسديته إليَّ!
لكن دراك لم ينظر إليها، وقال بصوتٍ خافتٍ محايد:
– لا حاجة لهما بذلك، فأنا مسافر إلى باريس هذا المساء، ومنها إلى إنكلترا... دون توقف.
وفي تلك اللحظة، تدخلت العمة، وقد غمرها امتنان لا يوصف، وقالت برجاء نابع من الأعماق:
– بحقّ ما فعلت من أجلنا... تعال معنا إلى الفندق، فإن وجودك صار لنا ضرورة لا غنى عنها.
فما كان من دراك إلا أن امتثل للأمر، وإن قال في سرّه ساخراً:
– ما جدوى العزوبة إن كنتُ لا أستطيع الفرار من أول امرأة تستنجد بي كما حدث اليوم!
وحين بلغوا الفندق، بدا أن العمة باسيليك أنهكها ما جرى، وداهمها المرض، فارتفعت حرارتها بعد أن بللتها الأمطار والرياح، أما بوليت، فقد أخذت تتلفّت بقلق لما لم ترَ والديها في انتظارها، وقالت بصوت فيه نفَسٌ من قلق وشوق:
– لقد تأخرا! إذاً، سأسبقهما إلى باريس، وفي الغدر نغادر على أول قطار.
همست العمة بصوتٍ واهن، وهي تحاول مقاومة الحمى:
– إن كنتِ ترغبين بالسفر، فلا بأس... لكنني لا أستطيع أن أدعكِ تسافرين بمفردك، فلا بد لي من الذهاب معكِ... ومع ذلك، كما ترين، أنا مريضة وأحتاج ليومين من الراحة على الأقل.
فقالت بوليت بلهفة لا تخفى:
– لا أقدر على الصبر يومين من دون أن أرى والديّ!
كان السيد دراك يتهيأ للانصراف، غير أنه ما إن سمع قولها حتى التفت إليها مقترحاً:
– هل تودين أن أرافقكِ إلى باريس؟ تبقين مع والديكِ، وتظل عمتكِ هنا يومين تسترد فيهما عافيتها.
فكان في اقتراحه راحةً لهما، ورضيت العمة بذلك، لكنّها استوقفت دراك على انفراد، وبعد حديث قصير دار بينهما، التزمت فيه الجدية والرجاء، وعدها الرجل بأن يطلع الفتاة، خلال الرحلة، على ما حلّ بوالديها. إلا أنه، وقد رقّ قلبه للفتاة، لم يجد في نفسه القوة ليصدمها بالحقيقة، وتركها ترافقه إلى باريس غافلةً عمّا يخفيه القدر من ألمٍ قاسٍ.
وما إن وصلا إلى منزل والدها حتى ترجلت بوليت من العربة وفي وجهها ابتسامة تشرق فيها الحياة، وقد تشبثت بيد دراك وجرته خلفها غير عابئة بتحفظه ولا بارتباكه.
دخلت الدار بخفة الفراشات، وفي تلك اللحظة، أطلّ الخادم الهندي "ملطار" من بابٍ داخلي، فسمع صوتها دون أن يراها، وتوقف مدهوشاً يخالج قلبه سؤال مباغت:
– كيف وصلت الآن من دون علم سيدي؟ ومن ذلك الرجل الذي يرافقها؟
وزاد ذهوله حين لمح البهجة في نبرة صوتها، فقد خاطبت دراك بضحكة صافية:
– تعالَ، لا تتلكأ! ما بالك تُحادث الحارس؟ أنا أعرف طريقي! وهل أحتاج إلى دليل في بيت أبي؟
قال دراك متردداً وهو ينظر حوله:
– لكنه يسأل عنكِ وعني لأنه لا يعرفنا.
– دعه يسأل كما يشاء، ادخل فحسب! جئنا دون أن نخبر أحداً، ولا سيما أنت، فما من أحدٍ يعرفك!

ثم تقدّمت صوب أحد الخدم وسألته بثقة الطفولة:
– أين السيد دي موري وزوجته؟
أجابها الخادم بهدوءٍ مفرط:
– لقد غادرا المنزل.
سألت بدهشة، وقد انعقد حاجباها:
– وأين الأميرال دي لامارش وزوجته؟
– إنهما لم يعودا يقيمان في هذا البيت منذ شهرين.
فقالت في لهجة مشوبة بالذهول:
– هذا أمرٌ غريب! ما معناه؟
ثم التفتت إلى دراك، وأمسكت بيده، وقالت برقة دافئة:
– تعالَ... دعني أعبّر لك عن امتناني وفرحي...
حاول أن يمنعها من الاسترسال، لكنه لم يستطع، وما لبثت أن قالت، كأنما تقرأ أفكاره:
– أعلم تماماً ما يدور في رأسك، تريد أن تقول إن شؤوني لا تعنيك، وإنك لا تحتمل المشاعر، وإنك تنوي المغادرة إلى إنجلترا بأسرع وقت، وإنك لا تودّ لفتاةٍ مثلي أن تعبأ بك أو تتدخل في عالمك الخاص. تريد الانكفاء على ذاتك، تغوص في عزلةٍ تامة، تأكل وتشرب وتفرح وتحزن في صمت، دون أن يشاركك أحد. تعتقد أن تلك هي السعادة، لكنها سعادة زائفة...
تكمن سعادة الناس الحقيقية في المحبة، في المشاركة، في أن نعيش بعضنا لبعض، نقتسم الهموم والفرح، نضحك معاً، نبكي معاً، ونجد في ذلك الدفء الذي يضيء العمر...
كان ملطار يستمع من بعيد، وقلبه يعتصر، فقد أيقن من كلماتها أنها ما تزال تجهل الحقيقة المرّة، فاضطرب، ثم غادر مخبأه متقدماً نحوها، وما إن رأته حتى تهلّل وجهها بالبشر، وهتفت:
– ملطار! يا لك من وجهٍ مألوف في لحظةٍ اشتقت فيها إلى كل ما هو مألوف!
مدت يدها إليه، فقبّلها باحترامٍ حنون، وهمس مرتجفاً:
– سيدتي...
فضحكت وقالت مازحة:
– ليتك سمعت الحارس! لقد أراد أن يمنعني من الدخول لأن والديّ ليسا في البيت!
– أراد أن يتحقق من هويتكِ فحسب، وأنتِ منعتني من إرسال برقية تخبرهما بوصولكِ.
– أردت أن أفاجئهما يا عزيزي!
وعندئذ، أشار دراك إلى ملطار إشارة خفية ألا ينطق بكلمة قد تُفسد اللحظة أو تفضح الحقيقة. لكن بوليت لم تترك له فرصة، فقالت بخفةٍ وعذوبة:
– قل لي يا ملطار، كيف حال أبي وأمي؟ تحدّث عن كليهما، أريد أن أسمع صوتك يتحدث عنهم!
كانت تخلع عنها معطف السفر، وتثرثر في مرحٍ طفولي لا يوقفه شيء. ثم التفتت إلى الخادم بنبرة عتاب خفيفة:
– ألم تسأل عن العمة باسيليك؟ تركتُها في مرسيليا مريضة، لكنها بدأت تتحسن، وقد رافقني السيد دراك في الرحلة، كان كريماً معي، ومرافقاً نبيلاً...
ثم اقتربت منه، وقالت بابتسامة مرحة:
– ولكن عليك يا ملطار أن تُبقي خبر وصولي طي الكتمان... لا تقل شيئاً لوالديّ، دعها تكون مفاجأة!
فأجابها ملطار بصوت متهدج فيه حبٌ وألم:
– نعم، يا سيدتي... ها أنا ذاهب.

غادر الخادم الأمين الغرفة مسرعاً، وقد أخفى دموعه التي كانت على وشك أن تفضحه، بينما كان قلبه يعاني من القلق على سيدته الصغيرة عالماً تمام العلم ما يخبئه لها القدر في تلك اللحظات الحرجة. أما السيد دراك، فقد أثقلت المهمة التي أوكلتها إليه العمة باسيلِيك قلبه وسببت له التردد والضيق، فقد طُلب منه إخبار الفتاة بالحقيقة المرة: طلاق والديها. علم يقيناً أن هذا الأمر سيحطمها في لحظة غير مواتية، بيد أنه لم يجرؤ على مواجهة هذه الحقيقة معها، ففضل أن يصل بها إلى منزلها ويترك للأقدار أن تروي لها ما لم تتمكن هي من معرفته.

أخذ قبعته، وهمّ بالانصراف، لكن بوليت، والتي كانت تراقب تصرفاته عن كثب، استوقفته قائلة:

– كيف تذهب بعد أن اعتنيت بي طوال رحلة السفر، وسخرت حياتك من أجل راحتنا، وأوصلتني إلى باريس؟ كيف تذهب دون أن تُمكّن والديَّ من شكرك؟

أجابها في هدوء محاولاً إخفاء تردده:

– لا داعي للشكر، فما فعلته كان دون عناء أو تكلّف. أما الآن، وقد وصلتِ إلى منزلك، ولم يعد لكِ حاجة بي، فأودّعك.

أمسكت بوليت بذراعه برقة، ونظرت في عينيه بتأمل، ثم قالت بدلال يعبق بالحنان:

– كلا، لا تودعني؛ لأنك باقٍ هنا، ولا بدّ لوالديّ أن يَرَيَا من رافقني في رحلتي الطويلة، وسأخبرهما بحسن رعايتك وكرم خُلقك حتى يؤدّيا لك واجب الشكر والثناء. ولا بد أيضاً أن ترى كل أقاربي.

– أتعنين جدّكِ الأميرال وجدّتكِ؟ إني لا أحب كثرة الأقرباء، ولا قلتهم!

انطلقت ضحكتها كأنها موسيقى ربيعية، وقالت بمزاح:

– وكم عدد أقربائك إذن؟

أجابها بثقة، وقد استقر في نفسه قرار الهروب من تلك التوقعات:

– أحمد الله على أني قريب نفسي الوحيد!

– إني لأرثي لحالك.

– بل أنتِ على وهم، لأن الحب الذي كان ينبغي أن أوزّعه على أقربائي جميعاً، قد خصصته لنفسي وحدي، فأنا عزيزي ووحيدي!

ضحكت بوليت بمرح أكبر، وقالت:

– كيف ذلك؟ أتحب نفسك إلى هذا الحد؟

– إنها خير وسيلة للإحسان إلى من يستحق الإحسان.

– لكن الحب يمنح المرء السعادة.

أجاب بثبات، وقد تشبث بموقفه:

– وأنا أدرى الناس بذلك؛ لأني أحب نفسي حباً جمّاً.

– ألم تحب امرأةً في حياتك قط؟

– ما كان ينقصني إلا هذا!

قالت، وقد خفضت صوتها كأنما تبوح بسر دفين:

– أما أنا، فلا أكتمك أني أحب رجلاً.

في تلك الأثناء، ارتسم على وجه السيد دراك ارتباك مفاجئ. تمنى في نفسه لو أن الكُنت دي موري يعود سريعاً لينقذه من ذلك المأزق. لكن الفتاة استمرت، وكأنها غافلة عن كل ما يدور حولها، فقالت بحماسة مفعمة بالحنين:

– سترى ما في بيتنا هذا من سعادة وحب! يا إلهي! ما أشد تعلقي بهذا البيت العزيز الذي لم أره منذ ثمانية أعوام، ومع ذلك فأنا أذكر كل شيء فيه...

ثم أشارت بيدها قائلة:

– احكم بنفسك! ها هنا إلى اليمين يوجد بهو صغير، لا يزال في خيالي كأنني دخلته بالأمس؛ إنه البهو الذي كانت أمي تفضله، وجدرانه وردية اللون... تعال وانظر، ستتحقق!
فتح السيد دراك الباب الذي أشارت إليه، وقال:
– نعم، هذا بهو صغير، لكنه ذو جدران زرقاء، لا وردية.
قالت بأسف، وكأنها تتمنى لو أن الزمن توقف في لحظة معينة:
– يا ليت لونه بقي ورديا! فقد كنت أحب أن يظل على حاله.
قال، وهو يبتسم ابتسامة متحفظة:
– إن الألوان تتغير، كما يتغير كل شيء في هذا العالم... المبادئ، العواطف، الأفكار، والميول... فلا تحزني.
أجابته بثقة رقيقة، وكأنها تشعر أن الحقيقة لن تؤثر على إيمانها:
– هذا صحيح، ولكني لا أبالي بذلك في الوقت الراهن، فأنت سترى أنني غير مخطئة... ففي هذا البهو الصغير، إلى يسار الباب، يوجد جدار عليه صورة كبيرة.
– صورة كبيرة؟
أجابت، وهي تشعّ بنظرة حنين دفينة:
– أجل، صورة لصبية حسناء ترتدي ثوباً من الحرير الأطلسي الأبيض... إنها أمي!
ارتبك السيد دراك، لكنه حاول التماسك قائلاً، وهو يقاوم شعوراً داخلياً بالخوف:
– كلا يا سيدتي، لا... لا أرى صورة.
أبلغت بوليت بدهشة ممزوجة بخيبة أمل، وهي تلقي نظرة متفحصة حولها:
– أليس هنالك جدار معلق به صورة؟
أجاب السيد دراك بصوت هادئ، وإن بدا فيه بعض التردد:
– أما الجدار، فنعم، وأما الصورة، فلا.
أسرعت بوليت صوب الباب، وكأنها لم تصدق ما سمعته، فصرخت بلهجة مفعمة بالتعجب والإنكار:
– ذلك مستحيل!
ثم، بعدما لم تجد الصورة التي كانت تتوقعها، توقفت لوهلة، وبدت على ملامحها الحيرة والقلق، ثم قالت بصوت متقطع:
– ماذا فعلوا بها؟!
بدت تلك اللحظة فرصة ذهبية ليكشف لها الحقيقة، ولكن قلب السيد دراك الرقيق لم يطاوعه على غزو تلك المنطقة المظلمة من الواقع، فتمتم بعذر هزيل:
– لا شك أن الصورة قد أصابها التلف بسبب طول غيابك، وقد نُقلت إلى مكان آخر لتصليحها.
– لا بد أن هذا ما حدث بالفعل.
ثم وقع نظرها على صورة أخرى كانت موضوعة على المدفأة، فصاحت فجأة بفرح وحماس:
– انظر! تلك صورتي منذ ثمانية أعوام، وقد جِيء بها من منديشوري!
انحنت بوليت لتقبلها بحرارة، ثم رفعت عينيها وقالت بصوت يختلط فيه الحنين بالألم:
– إني أقبّل دموع والدتي.
هز ذلك المشهد وجدان السيد دراك رغم محاولاته المستميتة للتجلّد، فتنحنح وتظاهر بالثبات، وأردفت بوليت:
– لقد تأثّرت لذكري والدتي، فأنت طيّب القلب يا سيد دراك.
تظاهر السيد دراك بقسوة التماسيح قائلاً:
– أنا؟ وهل يؤثّر فيّ شيء؟ وما شأني بأمر والدتكِ وأنا لا أعرفها؟
لكن بوليت، والتي كانت قد اعتادت على طباع دراك، لم تكترث بتعليقه، بل قالت:

– أين الكتب التي كانت على هذا الخوان؟ وما هذا المنديل؟ لا شكّ أن أمي نسيتْه هنا.
أمسكت بوليت بالمنديل، ثم قرّبته من أنفها لتشمّه، لكنها سرعان ما رمته جانباً بنفور، وقالت:
– ليست له الرائحة التي ألفتها من أمي، فهذا ليس بمنديلها. ولكنني أرى عليه حرفين لا ينتميان إلى اسمها، فهذه الحروف لا تدل على اسمها.
ثم صاحت بصوتٍ يخالطه القلق والتوجس:
– يا إلهي! ما هذا التغيير الذي طرأ هنا؟ لا بد لي من معرفة السبب.
اندفعت صوب باب آخر من أبواب البهو، فسألها السيد دراك:
– إلى أين تذهبين؟
– إلى غرفة والدتي؛ ففيها بلا شك أشياء تحدثني عنها... فانتظرني قليلاً يا سيد دراك.
انطلقت مسرعة، فقال السيد دراك متنهّداً:
– وا حسرتاه عليها، إنها شديدة الانفعال، ومن حسن حظي أني لم أتزوج ولم أُرزق بأولاد، فحياتي هادئة لا يعكّرها اضطراب.
وما لبثت بوليت أن عادت وهي تتمايل كأنها أصيبت بمسّ، وقالت بصوت متهدّج تتقطع حروفه:
– إني خائفة.
ثم تشبثت بذراعه، فقال لها:
– نعم، أنتِ ترتجفين، فما السبب؟
أجابت بصوت خافت:
– دخلت غرفة والدتي، ففوجئت بخادمة لا أعرفها، قالت لي بنبرة فظة: ما الذي تفعلينه؟ ومن أنتِ؟ فلما ذكرتُ لها اسمي، نظرت إليّ طويلاً، ثم قالت بلهجةٍ مستهزئة: أأنتِ ابنة الكونت؟ استسمحك عذراً. فأنكرت عليها قولها، وكنت على وشك أن أقول لها: بل أنا ابنة الكونتيسة أيضاً. لكن شيئاً ما ألمّ بقلبي، فاكتفيت بأن رمقت البصر حولي، فبدا لي أنني في غير غرفة والدتي. صحت وهربت إلى هنا.
بهت السيد دراك ولم يدرِ بماذا يجيبها، فتابعت في صرخة ألم:
– هل تغيّرت أمي أيضاً؟ وهل تنكرني اليوم؟ ولكني أسمع صوتاً... إنها أمي قادمة!
هرعت إلى النافذة، فشاهدت سيدة تترجل من العربة، فأخذت تقول:
– ما هذه والدتي، آه يا مستر دراك! هذا أبي، وسأنتظر والدتي وأنا على صدر والدي.
وما إن خرجت من باب البهو حتى التقت بالكونت دي موري، فتقدّم صوبها مسرعاً، وضمّها إلى صدره بشوق ولهفة، وهو يردد بصوت يغمره الحنان:
– بوليت! بوليت! ابنتي العزيزة!
وكانت هي تُقبّله وتكرر:
– أبي العزيز!
فتنهّد السيد دراك قائلاً:
– ها هي رفيقتي في السفر بين ساعدي والدها، فقد انتهت مهمتي، ويسرني أنها انتهت على خير.
وإذا ببوليت قد تخلّت عن ذراعي والدها، وقالت كأنما أيقظها ضميرها:
– إني جاحدة للجميل يا أبي، لأني نسيت أن أعرّفك بالسيد دراك، فهو صديق لنا، وقد التقيتُه أنا والعمة باسيليك، وكان من كرم أخلاقه ما لا أستطيع وصفه، فقد رافقني وحدي إلى باريس.
قال الأب متعجباً:
– وحدكِ؟ وكيف وقع ذلك؟

أجاب دراك بأدب جم:
– أجل، أيها الكونت، أدعى إيليا دراك. كنت تاجراً وقنصلاً نائباً لإيطاليا في كلكتا بالهند البريطانية. أما اليوم، فقد استقلت من منصبي واعتزلت التجارة. وقد عهدت إليّ شقيقتكم، والتي سقطت مريضة في مرسيليا، بمرافقة الآنسة بوليت إلى باريس... وستوضح لك كل شيء.
ثم أضاف بتواضع متأهباً للرحيل:
– لم يبقَ لي إلا أن أقول كلمة قبل مغادرتي، ثم أرحل إلى فندق اللوفر.
اقترب من الكونت وهمس في أذنه قائلاً:
– احذر يا سيد دي موري، وانتبِه جيداً إلى كيفية إبلاغ ابنتك بنبأ انفصالك عن والدتها. نحن، أنا والعمة باسيليك، لم نجرؤ على نقل هذا الخبر إليها، فهي لا تزال تجهل كل ما حدث، وصحتها لا تزال هشة وضعيفة.
فقد الكونت توازنه من هول المفاجأة، وشحب وجهه حتى صار كالشبح، وهتف مرتاعاً:
– وا ويلتاه! أأنا من أخبرها؟
ثم استدار السيد دراك صوب الفتاة وقال بلطف:
– أودعكِ يا آنسة، لقد كان شرفاً لي أن تعرفت إليكِ.
أخذ يدها وهزّها برقة، فقالت بوليت متوسلة:
– أتمضي قبل أن تعود والدتي؟ وقبل أن أعرّفك بها؟
– لابدّ لي من الرحيل يا صغيرتي.
– ولكنك ستعود إلينا، أليس كذلك؟
– لا أدري، فالأمر يستدعي أن أسافر إلى لندن على عجل...
– بل أريدك أن تعود، وأن تتعرّف على والدتي. أقسم لي أنك ستعود.
فأقسم لها، ثم استأذن وانصرف وهو يتمتم:
– نعم، أقسمت لها أن أعود... لكنني لم أقل متى! ولن أعود حتى تهدأ كل عاصفة في هذا البيت. تباً لهم، إني لست بحاجة إلى مرض القلب!
وبعد رحيل السيد دراك، انهار الكونت على مقعده، فمالت إليه بوليت تقبّله قائلة:
– ما أسعدني بهذا اللقاء، لقد اجتمع شملنا نحن الثلاثة بعد طول افتراق.
أخفى وجهه بين يديه، وانحدرت دموعه على وجنتيه. ارتعشت الفتاة من هول المفاجأة، واندفعت قائلة:
– لماذا تبكي؟ ولماذا تحجب وجهك عني؟ إلهي... ماذا حدث؟
ركعت أمامه، وأجابها بصوت يائس وحزين:
– يجب عليكِ أن تصبري، أن تتعقلي، وأن تتحلي بالشجاعة.
قالت، والقلق يعصف بها:
– ولكن، أي خطر يمكن أن يهددني وأنا بين يديك؟ لن يطول الوقت حتى أرى والدتي بجانبك.
– لن تري والدتكِ.
قالت فزعة، وقد اختلج قلبها:
– أهي غائبة؟ ألا تعود الليلة؟ لماذا لا تجيب؟... الآن فهمت... والدتي مصابة بداء، ربما على شفير الموت... بل لعلها... لعلها فارقت الحياة!
وانفجرت صرخة موجعة من فمها، فاندفع والدها إليها محاولاً تهدئتها قائلاً:
– لا، لم تمت والدتكِ، فاطمئني.
وضعت يدها على صدرها، وقالت بأنفاس متقطعة:

– ظننت أنني مشرفة على الموت.
قال لها بلين، وقد اختنق صوته:
– اسمعي يا بنيتي... وقع خلاف بيني وبين والدتكِ منذ أن وصلنا إلى باريس، فاضطررنا إلى الانفصال.
قالت متحسرة، وفي صوتها أسى عميق:
– آه! لماذا لم أكن حاضرة يوم نشب ذلك الخلاف؟ ربما لم يكن ليحدث ما حدث. أما وقد وصلت الآن، فالخصام سينتهي، وما مضى فات، وأمي ستعود إليّ، فأضمها إلى صدري، ونلتقي معاً في سعادة.
– ذلك لن يكون على الإطلاق. ارتفع بيني وبينها سور لا تستطيع أية قوة بشرية أن تتجاوزه.
وفي تلك الأثناء، دخل ملطّار قائلاً:
– سيدة دي موري قادمة، وهي في طريقها إلى هنا!
أضاء وجه بوليت كالشمس، وهتفت بفرح:
– إذن كذبتني لتختبريني؟! يا لبهجتي! أمي قادمة! فأهلاً وسهلاً بها!
سمعت وقع خطواتٍ وأصوات امرأة تلقي بعض الأوامر، لكن الصوت بدا غامضاً، فقالت بوليت بنبرة متحمسة:
– هل سمعت؟ هذه أمي!
حاول أبيها أن يمسك بها وينابيها، لكنها لم تلتفت إليه، بل انطلقت صوب الباب، وإذ بالسِتر يُزاح، وقد لاحت الكونتيسة دي موري. لكنها لم تكن هي تلك المرأة التي كانت تتوقعها؛ لم تكن ابنة الأميرال غريمين دي لامارش، بل كانت كلوديا بلميري، دوقة دي لوكا، أي جرجونة.
بُهِتَت بوليت قائلة:
– عفواً أيتها السيدة، لم أفهم... كنت أظن...
ثم التفتت إلى الخادم ملطار الذي كان يتوارى خلف الستار، وقالت له بنبرة عتاب:
– أنت المخطئ يا ملطار، لقد قلت إن السيد دي موري قادمة.
وقف الرجل جامداً غير قادر على الجواب، وقد أربكته المفاجأة، فتقدمت السيدة جرجونة بثقة وقالت:
– أظنكِ ابنة الكونت دي موري؟
فخفضت الفتاة رأسها خجلاً. عندئذ قالت جرجونة بنبرة هادئة لكنها قاطعة كالسيف:
– لا يحق لكِ أن تؤنّبي ملطار على ما قال؛ فهو لم يقل إلا الحق... فأنا الكونتيسة دي موري حقاً.
لم تفهم بوليت ما تعنيه السيدة، وظنّتها قريبة لها تجهلها، فبدت عليها الحيرة. لكن جرجونة لاحظت ذلك في ملامحها، فقالت موضحة:
– نعم، أنا الكونتيسة دي موري، زوجة أبيكِ.
صُعِقَت الفتاة، وترددت نبرة احتجاج ممزوجة بالذهول وهي تقول:
– أنتِ... زوجة أبي؟!
ثم تراجعت، وقد اجتاحها الخوف، فصرخت قائلة: "حذارِ يا أبي! هذه المرأة مجنونة!"
أسرعت لترتمي في صدر والدها، تلتمس الأمان، بينما قالت الكونتيسة جرجونة برقة: "لعلكِ لم تُطلع ابنتك على الحقيقة بعد، وقد آن الأوان لإخبارها بها. ألا ترى ما أورثه جهلها من إساءة؟ فقل لها إنني زوجتكِ حقاً".
ثارت بوليت، واجتاحها الغضب، ثم قالت: "ألا تسمع، يا أبي؟ إنها تتجرأ على الادعاء بأنها الكونتيسة دي موري، وتدّعي أنك زوجها! اسكت هذه المجنونة!"
فطأطأ الكونت رأسه كمن يعترف بخطأ جسيم، وقال بصوت خافت كالجراح النازف: "نعم، إنها زوجتي، وهي الكونتيسة دي موري بالفعل".
صرخت بوليت من هول المفاجأة: "إذن، فأين أمي؟".

لم يعد هنالك متسع للصمت أو التورية أو التهرب، فأضحت كل كلمة في ذلك المقام كأنها خنجر ذو حدين، فأجابها والدها قائلاً: "لقد أخبرتكِ من قبل يا ابنتي عن الانفصال الذي وقع بيني وبين والدتكِ، لكنني لم أطلعك على الحقيقة كاملة. لقد انفصلنا، وانقطعت كل صلة بيني وبينها، ثم تزوجت من السيدة التي ترينها أمامكِ، فهي الكونتيسة دي موري، زوجتي".

انتفضت الفتاة، ورفعت قامتها، ثم نظرت إليه بعينين تلتمعان بالعزة، وقالت: "تقول الانفصال؟ وأي ذنب اقترفته أمي حتى تُطرد من بيتها وتُنبذ من اسمك؟".

بدت تلك اللحظة وكأنها عكست إجلال الفتاة لأمها، واعتقادها الراسخ بأن تلك الأم فوق كل عيب أو نقيصة، بينما لم يكن ذلك الاعتقاد نفسه من نصيب والدها؛ وكأنها – دون وعي – بدأت توجه إليه الاتهام.

وعندئذ تدخلت جرجونة بحدة قائلة: "بل اسألي عن الذنب الذي اقترفته أمكِ حتى طردها زوجها وطلّقها!"

فصاحت بوليت بغضب عارم: "أنتِ كاذبة! كاذبة يا هذه!"

استشاطت جرجونة غضباً، وهبّ فيها كبرياؤها، ثم قالت مستنكرة: "أتستقبلينني بهذه الإهانة، وأنا التي عزمتُ على الاحتفاء بكِ وتكريمك؟ إذن فاسمعي الحقيقة كاملة..".

لكن الكونت أسرع يعترضها وقال متوسلاً: "بحق السماء، اسكتي يا كلوديا!".

ثم اقترب منها وهمس بصوت خافت مفعم بالرجاء: "أتوسل إليكِ أن تصمتي، فإني لا أريد أن أزيد من عذاب ابنتي بتحقير والدتها".

لم تسمع بوليت ما تفوه به، لكنها فهمت مغزاه، فانبرت تواجه الإيطالية بعينين تقدحان شرراً، وقالت متحدّية: "ما بالكِ صامتة؟ تكلّمي واذكري التهمة التي ترمين بها أمي!".

فقال الكونت: "أما أنا، فأطلب ألا يُقال شيء في هذا المعنى. عليكِما معاً بالصمت".

ثم دنا من ابنته، وخاطبها بلطف قائلاً: "أصغي إليّ يا بنيتي. ليس للابنة أن تقف بين والديها، فتُبرّئ أحدهما أو تحكم عليه. ما عليكِ إلا أن تحترمي والديكِ دون أن تسألي عمّا كان".

قالت بوليت بإذعان: "سمعاً وطاعة!" وهمّت بالانصراف.

– إلى أين؟

أجابت بعزم: "إني لاحقة بأمي".

– بل البثي هنا، فما تريدينه مُحال.

رفعت بوليت رأسها، وقد استولت عليها ثورة من الغضب والمرارة، وصاحت بصوت يقطر ألماً: "إن ما تطلبه مني يا أبي أمر عسير عليّ، وشديد القسوة! تقول لي: لا تسألي عما كان... حسناً، لن أسألك عن شيء، ولكن دعني أعزّي أكثر والديّ بؤساً وأشقاهم حظاً!"

ثم واصلت حديثها بصوت حمل في طياته عتاباً شجاعاً: "لا يصعب عليّ أن أدرك أن أمي أولى بالتعزية، وأنت يا أبي تنعم بكل مظاهر السعادة والرفاهية؛ فحولك علامات النعمة والرغد".

دهش الكونت، إذ لم يكن يظن أبداً أن ابنته، والتي عهد إليها بأن تكون حييةً شديدة التوقير، ستتحوّل إلى امرأة بهذه الجرأة والحدة في القول. كاد أن ينطق قائلاً: "لا تنخدعي بالمظاهر يا بنيتي، فالأشقى من لا يستعمل سلاحه!" لكنّه، على الرغم من تلك الاندفاعات الداخلية، تمالك أعصابه، ثم تجلّد، وقال بصوت هادئ متمالك:

– إن السلطة العليا قضت بأن أكون الوصي الشرعي الوحيد عليك.

فأجابته الفتاة بعزيمة وجسارة، كأنما تجرّدت من كل خوف أو رهبة:

ـ وهل تمتد سلطة الحكومة إلى ذاكرة الإنسان فتجرده من الاعتراف بفضل والدته؟ أكنت قد نسيت يا أبي تلك السنوات التي عشناها تحت جناحها مليئة بالحب والإخلاص والشفقة والحنو؟ اذكر أيام مرضي عندما كنت طريحة الفراش، كيف كانت تسهر عند رأسي لا تفارقه، تُرابط بجانبي كالملاك، وتكابد الخوف واليأس حين أوشكت الحمى الهندية الخبيثة أن

تنتزع روحي؟ هل لهذا جزاءها أن يُلقى بها إلى الطلاق؟ حتى يصبح الأب، الذي كان لي ملجأ وأماناً، غريباً عني؟ هل تظن يا أبي أن أمي لم تعد أمي فقط لأنها لم تعد زوجتك؟!
أجاب الكونت بحزمٍ يشوبه رجاء عميق:
– أصغي إليّ يا بنيتي، اليوم لا بدّ لك من احترام قرار الحكومة، وفي الغد ستلتقين بجدّك الأميرال وجدّتك، وهما من سيحددان ما يجب عليك فعله. ولن أمنعك من رؤية والدتك إذا رأيا ذلك مناسباً.
وقد بدا ذلك الوعد الكاذب مسكناً مؤقتاً لهيجان قلبها المضطرب.
أما جرجونة، فكانت ما تزال تقف في البهو، تراقب وتستمع بذهول إلى صراحة الفتاة وجرأتها. نسي الوالد وابنته أنها ما تزال واقفة تتابعهما في صمتٍ غريب، ثم دخل الزائر أنيبال بلميري، فحيّا بوليت، ثم توجّه إلى شقيقته جرجونة وصافح يدها، فقالت له بصوت منخفض:
– هذه هي ابنته.
فأجاب مبتسماً بإعجاب:
– إنها أجمل بكثير مما كنت أتصور
فأجابته جرجونة بتحذير قائلة:
– احذر منها كل الحذر، إنها عدوة لنا.
– مهلاً، لا تجزعي، فلا بدّ أن تصبح حليفة لنا بعد اقتراني بها.
فقالت محتدة:
ـ أما زلت متمسكاً بهذا الجنون؟
– وكيف لا أفعل؟
وفي أثناء حوارهما، راح الكونت يشرح لابنته طبيعة العلاقة التي تربطه بأنيبال وبالكونتيسة جرجونة حتى إذا بلغ حديثه النهاية قال لها هامساً:
– حاولي ألّا تُظهري عداءً قد يثنيني عن وعدي الذي قطعته. ومهما كان من أمر هؤلاء الذين عرّفتكِ بهم، فاصبري وتجَلّدي.
فقالت بوليت، وقد اشتد حزنها وثباتها معاً:
– سأفعل، ما دمت لا أستطيع أن أرى والدتي إلا بهذه الوسيلة.
ولكن، لو لم تقاطعها كلوديا بما تفوهت به، لما حدث ما تلاه من أحداث، إذ التفتت إلى شقيقها قائلة:
– إن الكونت قد عرّفك بابنته، وإذا رضيَت بوليت، فإني أعتبرها ابنتنا.
صاحت بوليت، وقد نفد صبرها:
– تقولين إنني ابنتكِ أنتِ؟! كلا، أيتها السيدة، وإياكِ أن تتلفظي بهذه الكلمة حين تخاطبينني، فأنا لا أجيبك!
اصفرّت ملامح كلوديا غضباً، وقالت الفتاة بنبرةٍ حازمة:
– إن لي أماً واحدة أيتها السيدة لا شريك لها في قلبي، ولها وحدها احترامي ومحبتي.
فالتفتت الكونتيسة إلى زوجها قائلةً بنبرة مستاءة:
– أترتضي لي الإهانة، وأنا لا ذنب لي إلا أنني فتحت ذراعيّ لابنتك المحبوبة متهيئةً لاحتضانها في صميم قلبي؟
قال الكونت بنبرة قاطعة:
– يجب أن نقف عند حد في هذا الجدال المؤلم. فاطمئني يا كلوديا، ستنالين التقدير في هذا البيت كما يليق بك، لكن للأسف، لا أستطيع أن أعدك بشيء آخر من جهة ابنتي سوى الاحترام. وأما أنتِ يا بوليت، فادخلي مخدعك وانتظري فيه أوامري.
انسحبت بوليت إلى حجرتها دون أن تودّع أباها، بينما دخلت جرجونة هي الأخرى إلى مخدعها ترتجف غضباً وأنفة. أما

أنيبال فمدّ يده إلى الكونت برسالةٍ قائلاً:
– نسيت أن أعطيك إياها، وقد استلمتها من ملطار عند دخولي.
مزّق الكونت الغلاف على عجل، وما إن قرأ سطورها حتى اكفهرت ملامحه، فسأله أنيبال قلقاً:
– ما الأمر؟
فناول الكونت الرسالة إليه قائلاً:
– اقرأ بنفسك. إن المصرف الهندي المرسيلي قد توقّف عن الدفع، ولم يعد لديه مال، وأنت تعلم أن فيه أموالي التي كنت أنوي دفعها لمساهمي منجم "ريونجرو"... بات الإفلاس أمراً محققاً!
قال له أنيبال مطمئناً:
– ألستَ تذكر اقتراحي؟ وهل فاتك أنني راغب في مصاهرتك؟
فمدّ الكونت يده إليه قائلاً بامتنان:
– أشكرك على كلماتك الطيبة، ولكن ما رأيته للتوّ يؤكد لك أن بلوغ أمنيتك بات ضرباً من ضروب المحال!
– لمَ؟
– ألم تسمع ما قالته بوليت لأختك؟ لقد كنتُ متنبّئاً بهذا الكره، فبوليت لا تكنّ وداً للمقيمين في هذا المنزل، لأنها تحنّ إلى أمها.
– أجل، لكن لا شك أن البغضاء تتحوّل إلى حب حين تدرك ابنتك اليد التي أمدّها إليك في هذه الظروف الحرجة، وحين تعلم أن مساعدتي لك تحفظ شرف اسمك. غير أن ذلك مشروط بأن يتم الزواج قبل انقضاء شهر، أي قبل انعقاد الجمعية العمومية لمنجم ريونجرو، وعندئذ أدفع للمساهمين المال الذي يصون كرامتك.
– لا بأس، رضيتُ بهذه الصفقة، ولكنني لا ألتزم بوعدٍ لا تُبدي ابنتي رغبةً في تحقيقه.
– لقد اتفقنا.
ثم تصافح الرجلان وافترقا.
وفي مساء ذلك اليوم، توجه ملطار إلى فندق اللوفر، حيث بقي السيد دارك. كان ملطار مرتدياً ملابس هندية فاخرة، ما جعل الباريسيين يظنونه أميراً من أمراء الهند، فأجلّه خدم الفندق وأبدوا له احتراماً كبيراً، لكنه، وقد أدرك خطأهم، لم يشأ أن يصحّح لهم ظنّهم.
دخل أحد خدم الفندق على الرجل الإنجليزي قائلاً:
– إن دولة الأمير ملطار يرغب في مقابلتك يا سيدي.
قال دارك مذهولاً:
– أمير يرغب في مقابلتي؟ وتقول إن اسمه ملطار؟ إني أذكر هذا الاسم، لكن لا أتذكّر صاحبه...
– دولة الأمير يرتدي ملابس هندية.
وعندئذ فطن دراك للأمر وتبسّم قائلاً:
– فليدخل الأمير.
وبعد لحظات، كان ملطار واقفاً أمام دراك الذي فتح فاه قائلاً:
– أأنت من يُدعى ملطار؟ لقد عرفتك للتو، فأنت خادم الكونت دي موري. هل لك ما تقوله لي؟
– نعم، يا سيدي.
– هل أرسلتك الآنسة بوليت؟ وهل هي أصيبت بداء؟
أجاب ملطار بهدوء: "كلا، ليست مريضة".
تنهد دارك، ثم قال مدهوشاً: "لا أدري لماذا سألتك عنها، فليس لي بها صلة، هي لا أختي ولا ابنتي، ولا علاقة لي بها؛ فقد بدأت معرفتي بها منذ أيام قليلة، وانتهت الآن. فهل كان كل شيء على ما يرام في المنزل بعد مغادرتي؟".

ردّ الهندي، وقد بدت على وجهه ملامح الأسى: "لست رسول الآنسة بوليت، جئتُ لأخبرك أن الأمور في منزل الكونت لم تجرِ كما كنتَ تتوقع".
فزع دراك، وقد ارتسمت على وجهه علامات الذهول: "يا للهول! زدني تفصيلاً!".
أخذ ملطار يسرد له ما جرى في منزل الكونت دي موري حتى وصل إلى قوله:
– الفتاة في حالة من الضيق والحزن، ولكن والدتها أشقى حالاً منها، فهي لا تعلم أن ابنتها قد عادت، ولم يُسمح لها برؤيتها، وتلك المرأة المسكينة تعدُّ الدقائق والثواني في انتظار لحظة اللقاء، فماذا سيكون حالها إذا علمت أنها لن تلتقي بابنتها؟ إنها، والله، قد تموت قهراً!
– لكن إن لم تلتقِ بها اليوم، فلا بد أنها ستراها في الغد! لن تموت جزعاً!
– كلا، لا اليوم، ولا في الغد، ولا مستقبلاً
– كيف علمتَ بذلك؟
– لأن الفتاة استأذنت والدها بزيارة جدها الأميرال غريمين دي لامارش على أمل أن تلتقي بها هناك، وكان الكونت سيوافق على طلبها لولا أن زوجته، الكونتيسة الجديدة، اعترضت ومنعتها.
فزع دراك، وقد علا وجهه الغضب: "بأي حق؟ ولمَ فعلت ذلك؟
– لأن الكونتيسة الجديدة زعمت أن الفتاة لا يجب أن ترى أمها إلا إذا تابت عن تصرفاتها القاسية إزاء زوجة أبيها وعادت إلى ما يليق بها من احترام وطاعة.
قال دراك، وقد تغير وجهه غضباً: "هل تجرأت على إبلاغ بوليت بهذا الكلام؟ كيف تجسُر على ذلك وأنت تدّعي أنك تحبها؟"
أجاب ملطار بصوت يفيض بالحزن أكثر من الدفاع: "لقد أُمرتُ فأطعتُ، رغم أن ذلك آلمني ومزق فؤادي".
– هل بكت حين نقلت إليها هذا الخبر؟
– لا، بل ضحكت ضحكاً غريباً، ثم تبدل وجهها وأخذها الغضب، فصاحت قائلة: "إذاً، قُضي عليَّ بألّا أرى والدتي إلى الأبد، وعلّمني القدر أن أشتري كل قبلة منها بذلٍّ وافتقار! اذهب يا ملطار، لا تتعذّب من أجلي، فسينقضي يوم يأتي فيه الوقت الذي يُسمح فيه لأمي أن ترافقني؛ ذلك اليوم سيكون يوم وفاتي، حينما تأتي لتلثم جبين ميّتة!"
اندفع دارك غاضباً، وقال: "سحقاً! ولماذا جئتَ لتخبرني بكل هذه التفاصيل؟ ألا تعلم أن هذه الأمور لا تعنيني؟ ولا علاقة لي بها!".
– جئتُ لأحدثك بكل ما وقع، وأطلب منك أن تأتي معي إلى منزل والدتها.
وثب دراك كالمجنون: "هذا محال! لقد رأيتُ بما فيه الكفاية من شرور آل موري! أفضّل الموت على التورط في هذه الأمور!".
ثم أردف: "ولكن، ماذا بوسعي أن أفعل إذا ذهبتُ معك؟".
وهكذا كان حال الرجل الإنجليزي القاسي في ظاهره، إذ يرفض في البداية ويغضب، ثم لا تلبث أخلاقه السامية أن تُسيره في النهاية.
خاطبه ملطار: "قل لوالدة الفتاة ما حدثتك به".
– وماذا يمنعك من إخبارها أنت بنفسك؟
– لا شيء، سوى أنك أنت من يستطيع أن يروي لها عن رحلة سفرك ابنتها، فتطمئن لأحاديثك، طالما أن الفتاة حدثتك عن أمها كثيراً.
قال دراك ساخراً: "بلا شك، حتى غرقنا في ملل حديثها الذي لا يهمني! ولم تقتصر على ذلك، بل أخبرتني عن شاب تحبه وتنوي الزواج به".
تفاجأ ملطار من هذا الخبر، وصاح مذهولاً: "هل حقاً تحب سيّدتي الصغيرة شاباً وتريد الزواج به؟"

– بلا شك. ولكن ما الذي يثير قلقك لمجرد أنك سمعت أن الفتاة تحب شاباً وتنوي الزواج منه؟
– لأنني سمعت حديث دار بين الكونت ورجل آخر، وعلمتُ أن الكونت وعد الرجل بزواج ابنته منه.
قال دراك، وهو يهز رأسه أسفاً: "هذا ما كان ينقص الفتاة البائسة! ومن يكون ذلك الرجل؟".
– إنه السيد بلميري، شقيق الزوجة الجديدة.
قال دراك وهو يسترجع ذكرياته المضطربة:
–بلميري؟ أتذكر هذا الاسم... ولكن ما لنا وله؟ هيا بنا، فلنذهب للقاء الكونتيسة دي موري.
انطلق ملطار ممتنّاً، وأخذ طرف سترة دراك ليُقبّلها في امتنانٍ عميق، ثم استقلاً المركبة التي معاً. ورغم أن ملطار كان قد اعتاد الجلوس إلى جانب الحوذي، إلا أن دراك أشار إليه بازدراء محبباً وقال مازحاً:
–هل نسيت أنك من أمراء الهنود؟
وعندما وصلا إلى بيت السيدة لورانس، قال دراك:
–اصعد أنت أولاً، وأخبرها بقدومي.
لكن ملطار ردّ متوسّلاً:
– بل اصعد معي، وانتظرني في الإيوان، وسأدعوك عند الحاجة.
صعد ملطار وحده، وعندما وقف أمام الكونتيسة، قال لها بصوت يتألق بالأمل:
– لديّ أخبار جديدة عن سيّدتي الصغيرة.
نهضت الكونتيسة فجأة، وضغطت بيدها على صدرها وكأن قلبها يخفق بعنف، ثم استلقت على المقعد، وقد غلبها التأثّر وقالت بصوت متهدج:
– حمداً لله... فأين هي الآن؟ ومتى تصل؟ تكلم، قل لي شيئاً، لا تقتلني بسكوتك!
– لقد وصلت السفينة إلى مرسيليا.
فسألته بحماسٍ ولهفةٍ: "هل وصلت اليوم؟".
–لا، منذ يومين.
–إذن، فابنتي تصل اليوم إلى باريس... أو لعلها قد وصلت بالفعل؟ قد تكون في انتظاري الآن وراء هذا الباب! تعالَ معي، وأنتِ يا ابنتي، ادخلي، دعيني أضمّكِ إلى صدري، فما خفق قلبي إلا لكِ وبكِ!
انطلقت صوب الباب كالعاصفة، ففتحته سريعاً قبل أن يستطيع ملطار إيقافها، ولكنها حين فتحته لم تجد خلفه سوى الرجل الإنجليزي الذي لم تكن تعرفه، فارتدّت وقد خاب ظنّها.
–اطمئني، يا سيدتي، فإن الرجل الذي ترينه أمامك هو صديق أتى ليحدثك عن سيّدتي الصغيرة، لأنه صديقها أيضاً... بل هو صديقها الوحيد الذي يرافقني.
قالت الأم، وقد خفّت نبرتها وظهر على وجهها علامات اللين:
–أأنت صديق ابنتي؟ وأتيت لتحدثني عنها، أو لتوصلني إليها؟ بارك الله فيك، وجزاك خيراً.
في تلك الأثناء، نعجز حقاً عن وصف ما اعترى قلب السيد إيليا دراك من مشاعر، لكن يكفي أن نقول إن الغضب راح يعتصره، ليس لأنه استفزّ من الموقف فحسب، بل لأنه شعر بحسٍّ عميق يتناقض مع برودة المعتاد، فقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره مبتعداً عن كل ما قد يزعجه أو يثير في قلبه مشاعر ظنّها قد اندثرت.
عاش معظم حياته وحيداً، لم يربط قلبه بأي امرأة، لا لأنها لم تكن جديرة بحبه، ولكن خوفاً من أن يُبتلى بدلالهن، فيثقل قلبه بما لا يستطيع تحمّله. كان إذا دخل نادياً، فليس للصحبة أو التسلية، بل ليقرأ جريدة "التيمس" أو ليستلقي بهدوء على أحد المقاعد. كان قد امتلك كلباً ذات يوم، لكنه فقده تحت عجلات مركبة عابرة، فحلف ألا يقتني كلباً بعد ذلك، وأقسم ألا يرتبط بأي إنسان أو حيوان، حماية لقلبه من أعباء العاطفة وفجائع الفقد.
لكن شاءت الأقدار اليوم أن تحطّم عزلة ذلك الرجل، وأن تجذبه من عالمه الهادئ إلى عالم الناس وهمومهم، وهو أمر لا

يتوافق مع طبعه ولا مع إرادته، فغضب على نفسه، وشعر كما لو أنه يُنتزع من ذاته، لكنه لم يستطع العودة إلى الوراء. كان طيب القلب، رغماً عنه، لا يستطيع مقاومة دمعة صادقة أو نظرة أمٍّ حزينة.

وعندما رأى الكونتيسة لورانس تبكي، اشتعل قلبه لها، فأجلسها بلطف على مقعد، وأخذ يمسح دموعها بمنديله، ثم قال بصوته العذب الرزين:

– صبراً، أيتها السيدة العزيزة، تجلّدي... فإن ابنتك حيّة، وسوف ترينها قريباً.

كانت كلماته بمثابة الماء البارد على نار مشتعلة، فعادت الكونتيسة إلى رشدها، ومسحت دموعها وقالت، وقد هدأت نبرتها:

– نعم، حدّثني عن ابنتي يا سيدي، فلك الفضل الذي لا أنساه طيلة ما حييت.

تطوّر الحديث بينهما، وراحت الساعات تمضي سريعاً، وتعمّق الحديث في تفاصيل قدوم بوليت، لكنه أخفى عن الكونتيسة الحقيقة المرة، ولم يخبرها أن ابنتها لن تلتقي بها، وأن والدها قد قرر أن يسلمها إلى أنيبال بلميري، شقيق زوجته الجديدة، الرجل الذي كانت الأم تخشى منه. لقد كتم عنها ذلك رحمة بها، كيلا يزيد حزنها ألماً ويحوّل أملها إلى خيبة.

وقبل أن يهمّ بالرحيل، استحلفته الكونتيسة أن يعود إليها، فلم يقدر أن يرفض، فاضطر إلى القبول وقال لها:

– سأعود، قبل رحيلي عن باريس.

لكن ملطار الذي كان يراقب الموقف بقلق سأل:

– ومتى ستغادر يا سيدي؟

– في الغد.

فزعت لورانس لسماع هذا الجواب، إذ خيّل إليها أن الغد سيجلب معها فقداً جديداً، فقداً لهذا الصديق النبيل الذي دخل حياتها كنسمة عزاء. نظرت إليه نظرة ملؤها الرجاء والتوسّل، فلم يملك دراك إلا أن يقول متأثراً:

–في الغد، أو بعد الغد، أو بعد أسبوع... لا أدري! لكنني، على أي حال، سأغادر، نعم، لكن بعد أن يطمئن قلبك، وبعد أن تري عزيزتنا بوليت، وتقولين لي: "لقد عدنا إلى سعادتنا، ونحن لا نحتاج بعد الآن إلى السيد إيليا دراك، فليذهب بسلام.

الفصل الثامن

ويذكر القراء الكرام أن الأميرال والد الكونتيسة لورانس قد انتقل مع زوجته من منزل الكونت دي موري إلى بيت آخر في شارع لوشان. وكان الجميع يعلم مقدار حب الزوجة لابنتها وشدة تعلقها بها، فهي كانت دائماً تتوسل إلى زوجها أن يسمح لها بلقائها أو على الأقل بمراسلتها، ولكنه أصرّ على الامتناع، وبقي في تجاهل تام لابنته، في حين ظلت لورانس خاضعة، ذليلة، تترقب بعينين قلقتين نظرة عطف أو سماح.

وذات يوم، دخل الأميرال إلى بيته ليجد زوجته تبكي، فقال لها بنبرة جافة:

– ألا تزالين تبكين؟

فأجابته وهي تكبح دموعها:

–وا أسفاه! لقد أطعتك وتظاهرت بالقوة، لكن فؤادي طالما كذب تعابير وجهي.

– قد مرّ ثلاثة أشهر لم أَرَ خلالها ابنتي!

أجابها بحدّة:

–لقد منعتك من ذكرها، فافترضي أنها قد ماتت.

فقالت بحرقة الأم:

– إذن، دعني أبكي، فأنا أم، أما يحق لي أن أبكي على ابنتي المفقودة؟

– افترضي أنها لم تكن موجودة قط.

– مهما كانت مذنبة، فهي ابنتك، ألم تذكر حبك لها في أيام الصبا؟

– لا تكلّميني عنها.

–لست أملك من قوتك شيئاً، أنا امرأة وأم، وأتوسل إليك راكعة أن تسمح لي برؤيتها.

–كلا، لن تدخل هذا البيت طيلة ما حييت.

–دعني أزورها في بيتها... ولو سرّاً.

– الذنب الذي لا يُغتفر يستوجب العقوبة التي لا رأفة فيها ولا عفو.

–ومن يدري؟ أهي مذنبة حقاً؟ أم أن ذنبها ليس كما تظن؟

–الزوجة الخائنة لا يلتمس لها العذر على الإطلاق.

ثم سكتت، وجفّ الكلام على لسانها، وأخذت تفكر طويلاً في كلماتها حتى قالت في نفسها بمرارة:

– هل يُحسبونني زوجة خائنة لا تستحق الرحمة إن انكشف يوماً ما طُوي من الماضي في صدري؟ وكم من زوجاتٍ مثاليات دفنّ في صدورهن أسراراً لو أُحييت لكانت ناراً لا تُطفأ من الشقاء والتعاسة، فتحوّل الحياة إلى جحيم أكثر حرارة من نار جهنم.

ومن الجدير بالذكر أن بوليت، حفيدة الأميرال، قد زارت جدّيها بعد الحديث الذي ذكرناه بنحو أسبوع. فالتقت الفتاة بجَدّتها، وراحت كلّ منهما تنظر إلى الأخرى بنظرة واحدة تنم عن حزن عميق على الزوجة المطلّقة التي تمزّقت روابطها بالأمومة والمنزل.

وقد اشترط الكونت على ابنته ألا تذكر اسم أمها على الإطلاق، كما اشترط الأميرال على زوجته ألا تذكر اسم ابنته. ولذلك، لم تطل زيارة بوليت، ثم انصرفت واعدة بالعودة في اليوم نفسه من الأسبوع المقبل.

وفي ذلك اليوم، قبل ساعة من موعد الزيارة، دخل خادم على الأميرال حاملاً بطاقة صغيرة مكتوباً عليها" السيد إيليا دراك".

نظر الأميرال إلى البطاقة قائلاً:

– يبدو هذا الاسم مألوفاً لمسامعي... فلتسمح له بالدخول.

وما إن اقترب السيد دراك حتى ثبتت عينا الأميرال عليه بتفحّصٍ غامض، وكأن وجهه يوقظ في الذاكرة شبحَ لقاء قديم،

لكنه لم يقدر على القبض على تفاصيله، فقال متردّداً:
– أظن أننا التقينا من قبل... لكن، أين؟ لا أذكر حقاً.
أجاب دراك بنبرة رصينة:
– أما أنا، فأذكر جيداً. لقد رأيتك في كلكتا، حين كنتُ تاجراً صغيراً، وقت شغلت هناك منصب قنصل إيطاليا.
أومأ الأميرال برأسه، وقد بدا عليه التذكّر فجأة، وقال بنبرة ثابتة:
– نعم، أتذكر الآن... كان ذلك في حفلة أقيمت تكريماً لضباط أسطولي.
– وبعد تلك المرحلة، عزمتُ على اعتزال الشؤون العامة، وأن أضع حداً لأعمالي، وأرتاح بعد أن أنهي المهمة التي أتيت من أجلها.
رفع الأميرال حاجبيه وسأله بنبرة جافة:
– ومن الذي أرسلك بهذه المهمة؟
– الآنسة دي موري يا سيدي.
دخلت زوجة الأميرال في تلك اللحظة، وعيناها لا تزالان محمرتين، وسألت باهتمام:
– هل تعرف حفيدتي؟
– أجل، رافقتها في رحلتها، وسافرت معها إلى باريس حين تعذر على عمتها متابعة السفر.
قال الأميرال وقد عقد حاجبيه:
– هل علمت أن عمتها باسيليك قد وافتها المنية في مرسيليا؟
هز دراك رأسه بأسى قائلاً:
– نعم، وقد بلغني الخبر من الآنسة بوليت، وكان محزناً.
تقدمت الزوجة خطوة، ثم سألت:
– هل رأيت ابنتي اليوم؟ وهل هي من أرسلتك إلينا؟
أجاب بلطف:
– أجل، والآنسة بوليت ترى أنني قدمت لها خدمة جليلة، وتود أن أواصل تلك المساعدة، وأنا – ضعيف النفس – لم أستطع أن أرفض لها رجاء.
قالت السيدة:
– لا شك أنها أخبرتك بنيّتها في زيارتنا؟
لكن دراك أجاب بصدق:
– عفواً سيدتي، ليس ذلك هو الغرض الوحيد من زيارتي. لم أكن صريحاً حين قلت إنني مرسل من قِبَلها. في الواقع، جئت من تلقاء نفسي، واستعرتُ اسمها لجذب انتباهكم إلى شخصي المتواضع فحسب.
امتقع وجه الأميرال قائلاً بنبرة حادة:
– إذن، ما الذي جاء بك حقّاً؟
– جئت لأتحدث إليك بشأن الكونتيسة دي موري، والدة الآنسة بوليت. والحق أنني، بصفتي رجلاً تمرّس في الدبلوماسية، عرفت كيف أهيّئ لنفسي الحق في أن ألفظ اسم ابنتك هنا، في بيتك.
تلفّت الأميرال حوله وكأن الكلام وخزه في أعماقه، ثم قال:
– هل جئت لتحدثني عن والدة بوليت؟
سألت زوجته بدهشة: "عن لورانس؟ عن ابنتنا؟".
– نعم، وأظن أنكما تجهلان أن الكونت دي موري منع ابنته من لقاء أمها، وهذا أمرٌ مؤلم.
قال الأميرال بصرامة:

– بل أراه عدلاً.
– قد يكون عادلاً، لكنك تتفق معي أن هذا المنع بالغ في قسوته، وكأنما تَصور لو أنك منعت زوجتك من لقاء ابنتها.
زمجر الأميرال:
– وقد فعلتُ ذلك حقاً! وأستغرب كيف تجرؤ على الاعتراض.
– وأنا أستغرب كيف سمحت لنفسي بالتدخّل في أمورٍ لا تخصني. لكنك تعلم، أيها الأميرال، أن القنصل لا يخلو من الأفكار العجيبة، وقد خطرت لي فكرة اليوم، وقلت للسيدة لورانس: "ابنتك ذاهبة لزيارة جدها، فاذهبي أنتِ أيضاً، حيث بوسعكما اللقاء على أرضٍ على الحياد".
صاح الأميرال بانفعال:
– أعلمك أنني لا أرغب برؤية تلك المرأة!
– أعلم ذلك، بل وأعلم ما هو أكثر. ولكن، تأمل هذا اليوم الصافي الجميل. لو كنت على رأس أسطولك، لكانت الرياح اليوم طوع أمرك. فلمَ لا تخرج في نزهة إلى غابة بولونيا؟ وأثناء غيابك، دون علمك، تلتقي زوجتك بابنتها وحفيدتها هنا في البيت.
قال الأميرال بنبرة عنيدة:
– أمنع زوجتي من رؤية تلك المخلوقة!
قال دراك ببرود إنجليزي تقليدي: "بارك الله فيك، فلتذهب معك إلى الغابة، وأثناء ذلك تزور مدام لورانس ابنتها هنا، في هدوء. لا أظن أن في ذلك ما يسيء، بل فيه ما يثلج القلب. أليس من الجميل أن تجتمع أم وابنتها بعد فراق طويل؟ كلتاهما تشتاق للقاء، فهل تحرمهما من هذا الفرح؟
فهاج السخط الأميرال وصاح قائلاً:
– إن لورانس لن تأتي إلى هنا أبداً، وهي تعلم تماماً أنها يجب ألا تأتي.
– عفواً، أيها الأميرال، بل يجب عليها أن تأتي.
– قلت لك كلا، فهي لا تتجرأ.
– بل تتجرأ؛ لأنني أنا من أشرت عليها بهذه الجرأة، ووعدتها بالحصول على إذن منك.
– كلا، إنك لم تفعل ذلك.
– بل فعلتُ ذلك، فالسيدة لورانس في الطريق إلى بيتك الآن، منتظرة ما ستقرره، وهنا لا بد من الإقرار بأنها قد أتت بالفعل.
قال الأميرال، مستغرباً: "أتت إلى هنا؟".
– أجل، هي في الشارع، أسفل النوافذ، جالسة داخل مركبتها، وتنتظر مني إشارة تملأ فؤادها سروراً، أو دلالة تمنحها بصيصاً من الأمل في وسط يأسها العميق.
– وكيف ذلك؟
– عندما وصلت السيدة لورانس إلى أمام منزلك، أشارت لي إلى نافذة الحجرة التي ترى منها، وقالت لي: إن والدي في الحجرة التي ترى نوافذها، وأشارت إلى هذه النوافذ. فأجبتها: "سأحاول أن أستميله إليك، وإذا نجحت في مسعاي، وهو ما آمل، فسنفتح لك هذه النافذة، وأشير إليك بالصعود. أما إذا فشلت، لا قدر الله، فإني سأسدل الستار عليها، وفي تلك الحالة ستغادرين، وتعودين إلى محلك المحزون.
لم يكمل دراك كلماته حتى نهض الأميرال بحركة عصبية، وتوجه صوب الستار يريد إنزاله، فقالت له زوجته، متسائلة: "ماذا تفعل؟"
فابتسم دراك ابتسامة خفيفة وهمس في أذنها قائلاً: "دعيه يفعل".
وبعد أن أسدل الستار، ارتفعت صيحات دراك، وهو يقول:

– يا الله! ماذا فعلت!
– ما معنى هذا الكلام؟
– معناه أنني أخطأت. لقد حملني الاضطراب والانفعال على اقتراف الخطأ، إذ كان الاتفاق بيني وبين السيدة لورانس أن أسدل الستار في حالة موافقتك، لا في حالة امتناعك.
توجهت زوجة الأميرال بنظرة ملؤها الإدراك إلى دراك، وأردفت بقلق:
– يا رباه!
وقد عبرت ملامح الأميرال عن خيبة أمل كبيرة وهو يدرك أنه انخدع بتلك الحيلة البسيطة، بينما أخذت عيناه تستعرضان في ذهنه احتمال قدوم ابنته. وقال، وقد بدأ الغضب يسيطر عليه: "والآن ما العمل؟".
أجاب السيد دراك، وهو يماطل في كلامه ليتيح الفرصة للسيدة لورانس للوصول:
– الآن، كان خطئي هو السبب في دخول السيدة لورانس. هي الآن تصعد الدرج، وقلبها يخفق فرحاً وانفعالاً... والنتيجة أنها قادمة، وهي هنا الآن، أيها الأميرال.
وما لبث دراك أن تلفظ بهذه الجملة الأخيرة حتى انفتح الباب، وظهرت لورانس على العتبة، مترددة، وجهها شاحب، وعيناها مغرورقتان بالدموع. وها هو قلب الأم يزداد رقة وشفقة أمام محنة الابنة، فرغم شدة تصرفات الأميرال، لم تتمالك الأم نفسها، فنهضت في لمح البصر، واندفعت إلى ابنتها ضامَّة إياها إلى صدرها، وهي تقول: "لورانس، لورانس! حبيبتي لورانس"!
فأشار الأميرال إلى الباب وقال لابنته:
– والآن، اخرجي، واذكري ذنبك لعلَّك تمتنعين عن المثول أمامي.
– إذا كان ذنبي يستحق عقاباً، فقد تولاه زوجي وكان أليماً.
– ولو تولاه غير زوجك، لكان أشدَّ إيلاماً، وما أعني إلا نفسي. لو كنتِ زوجك، لكان انتقامي أدهى وأنكى، ولا يهمني إن متِّ يأساً وعاراً
– نعم، كان في الإمكان أن أموت، ولكنني لم أسئ إليك يا أبي، بل كنت، وما زلتُ، الابنة الخاضعة المخلصة. ولو نظرتَ إلى إخلاصي، لرَأَفتَ نفسك بي!
أصغى السيد دراك إلى تلك الكلمات، ولو ادعى أنه بعيد عن كل تأثُّر وانفعال، فإن ادعاءه كان بعيداً عن الصواب؛ إذ راح يعضُّ شفته ليكتم دموعه، ثم تجلد قائلاً:
– نعم، أيها الأميرال، لا يسمع هذا الكلام أحد إلا ويشعر قلبه بالحنان.
لكن الأميرال لم يلتفت إليه، وأجاب ابنته قائلاً:
– تمنَّي على الزمان أن يخمد الكبر والألم ذاكرتي، ولكن ما دمتُ أتذكر، فلا ترتجي مني خيراً!
– لا أطلب منك العفو، ولا الرحمة، بل أتحدث عن ابنتي، وأرجوك أن تفتح لها باب هذا البيت، من أجل حياتها، من أجل قلبها. لقد عادت إلى باريس، ولم ترني منذ عام، فدعها تراني. لا تُبالِ بحزني، إن كنتَ تراني مجرمة، فلا تظلم ابنتي. أوصدت أبواب بيت الكونت دي موري في وجهي. ولست تجهل أن بوليت لا يُسمح لها بزيارتي، فهل يليق بي أن ألتقي بها خفيةً في زوايا الطرق؟ أن أقبلها في الظلام؟ لا تطلب هذا مني يا أبي، إنه أكثر مما أحتمل.
ارتبك الأميرال للحظات، وكأن قلبه تصدّع، لكنه تماسك، ثم قالت زوجته برفق:
– ألا ترى عذابها؟
– وأنتِ، ألا تدركين عذابي؟ ألا تعلمين أن كل كلمة ألم تمزّقني؟ كل جرحٍ فيكِ يدفعني لأن أرتمي عليها وأضمها إلى صدري، لكنني لا أستطيع! لا طاقة لي! دعوها تذهب!
رفعت لورانس رأسها، وبصوتٍ متهدج قالت:
– سأذهب... وأدعُ الله ألا يحاسبك في الآخرة بهذه القسوة التي عاملتني بها.

ثم سارت نحو الباب، لكنها ترنحت فجأة، فتقدمت أمها سريعاً وأمسكت بها، وصاحت:
– ابنتي، لورانس! ابنتي!
فأجابتها لورانس بابتسامة باكية:
– لم أشك يوماً في حبكِ يا أمي... ولَكَم يسعدني أن أموت في هذه اللحظة، ودموعكِ تنسكب فوق جبيني...
– وهل تريدين الموت، أيتها المنحوسة؟
فابتسمت وأجابت: "نعم، هذا الموت، وأنت وبوليت بين ساعدي... وداعاً، يا أمي".
فضمَّتها الأم إلى صدرها بقوة وقالت: "لا، لَن أسمح لكِ بالذهاب، وأنتِ في هذه الحالة". ثم التفتت إلى زوجها وقالت له: "إن معاناتك قاسية، وأن قلبك أصبح خشناً قاسياً، ولكن الندم يدعو إلى العفو، والدموع تستدعي الشفقة. من العجيب أن تبقى جافّاً، وتنبذ ابنتكِ وهي تساقط دموعها أمام قدميك".
كاد الأميرال ينفجر من الغضب، وصاح: "لا، لا!".
ركعت لورانس أمام والدتها، فنهضت الأم بثبات وقالت: "قفي يا لورانس". فدهشت الابنة وسألتها: "ماذا تفعلين، يا أماه؟" فأجابتها الأم بكل هدوء وقوة: "أفعل ما ينبغي عليَّ فعله، سأغادر بيتاً لم تدخل إليه ابنتي... أنا ذاهبةٌ الآن، لأمسح دموعي بدموعكِ".
نظر الأميرال إليهما متسائلاً: "أتظنين أن مفارقتي ستكون هكذا؟ ألست أنا زوجكِ؟!". فأجابته الأم بنبرة قاطعة: "نعم، لأكون برفقة ابنتي النادمة". فكر الأميرال للحظات، ثم رد بمرارة: –افعلي ما بدا لكِ، ولكن اعلمي أن رحيلكِ سيظل في ذاكرتي لأربعين عاماً، وسيملؤه الإخلاص والحب. كنتُ أظن أن الموت وحده قادر على تفريقنا، لكنني فطنت الآن إلى أن البقاء في هذه الدنيا لا يستمر طويلاً.
جلس الأميرال متأثراً، مغموراً بالدموع. وحين رآه السيد إيليا دراك، بدأ يخطو نحوه محاولاً تقديم يد العون، لكنه بدلاً من ذلك، أخرج منديله ومسح وجهه، بينما كانت دموعه تتساقط بحرقة. أما لورانس، فقد شعرت بقلبها يثقل من الكلمات التي تناهت إلى مسمعها، وراح قلبها يتنفس الحزن لما يحدث أمامها. وعندما رأت والدها مجهش بالبكاء، صاحت: "انظري يا أماه إلى والدي، إنه يبكي! ذلك الرجل الذي لم تؤثر فيه عواصف البحر ولا معارك البر والبحر، ها هو يبكي. فهل تتركينه وسط دموعه؟".
كان لحديث لورانس أثر كبير على قلب الأميرال، فقد هزت كلماتها مشاعره بقوة، وأخذ يردد: "لورانس، لورانس! لقد غلبتِني، فابقِ ولا تذهبي". نظرت لورانس إلى والدها بقلق، وكأنها لم تفهم مغزى كلماته، فاستطرد الأميرال قائلاً:
– نعم، ابقي، ولو فارقتني أماه لما عشت بعد فراقها، ومع ذلك، لم أنطق بكلمة واحدة لأبقيها هنا؛ لأنَّها حقاً فضلتِك عليَّ. ولكنكِ أنتِ من أحييتِ قلبي، فقد جئتِ تطلبين الرحمة دون أن تطلبي شيئاً، وأنتِ صاحبة الفضل".
قالت لورانس متمتمة بحزن: "آه يا أبي". ثم احتضنته وهي تبكي، بينما راحت دموع الأم تنساب على وجنتيها، وتشهد تلك اللحظة المفعمة بالعاطفة. أما السيد دراك، فقد شعر بالتأثر العميق، فوثب صوب الأميرال ليهنئه، لكنه تراجع عن الكلام، حيث غلبته الدموع التي بدأت تنهمر من عينيه. وبعد أن أمسك بيد الأميرال، هزها ثلاث مرات بقوة، ثم خرج مسرعاً إلى الشارع.
وفي الطريق إلى الفندق، استغرق دارك مفكراً في مشهد الأميرال، وقائلاً لنفسه:
– والله، إن ما فعله الأميرال حسن، بل هو حسن جداً. لو كان في مكانه أميرال إنكليزي لما فعل أفضل من ذلك. ولكن ما أغفله هو أن إخلاص ابنته غلبه، وهذا الانتصار يعزز مكانته أكثر من جميع انتصاراته.
وحين وصل إلى الفندق، التقى بالخادم الهندي "ملطار" الذي استقبله قائلاً: "لقد جئت إليك بأخبار خطيرة... سمعت حديثاً دار بين سيدك والسيد بلميري، وقد قال بلميري إنه يطلب من الكونت وعداً بأن يزوج ابنته له، فاستمهله الكونت فأبى، فهل من طريقة لمنع ذلك الاقتران؟ إنه ظلم أن تُضَحّي سيدتي الصغيرة بتزويجها لبلميري".
– فضلاً عن كونها تحب رجلاً آخر على حد علمي، فما الذي يجعلها تتزوج بلَميري؟

ثم صمت للحظات، وقال لنفسه: "بلميري؟ بلميري؟ أذكر هذا الاسم".

الفصل التاسع

وفي تلك الأثناء، كان الأميرال وزوجته وابنته غارقين في لحظات فرح عارم بعد فراق طويل، وعندئذ لاح خادم يُنبئهم بقدوم الآنسة "دي موري"، وقائلاً إنها في البهو تنتظرهم. فما إن أُبلغت لورانس بالخبر حتى شهقت، وضعت يدها على صدرها المضطرب، وكادت أن تفقد وعيها حينما أبصرت ابنتها التي تركتها مريضة ومتألمة، وقد عادت إليها متعافية متألقة في أبهى حلة من الجمال والنضارة. تمتمت باسمها "بوليت"، ثم اندفعت الفتاة نحوها، وتعانقتا بحرارة، وتراوحت أصوات القبلات والزفرات بينهما.

بدأت الابنة تروي ما دار بينها وبين أبيها، وفجأة انقشع الغموض عن ذهن لورانس، فصاحت: "ذلك لأنه يظنني مجرمة!" فاستوقفها والدها مدهوشاً، وقائلاً: "ما معنى كلامك؟" كادت أن تبوح بما يخالج نفسها، لكن ذكريات قسوة أبيها منعتها، فأخفضت رأسها ونظرت إلى أمها، وكأنها تُقرّ بذنبٍ لم تُفصح عنه.

وبعد لحظات، عندما خلا المكان بلورانس وبوليت، قالت الأم لابنتها: "لقد وُجهت إليَّ اتهامات لم أرغب قط في دفعها عن نفسي، ولكن الآن، لا أحتمل أن تشكي فيّ أنتِ أيضاً يا ابنتي. فأصغي لي بإمعان، وتذكري كيف ربيتك على الفضائل السامية".

أجابت بوليت: "إني أذكر ذلك جيداً".

– فهل تصدقين أن أمكِ كانت زوجة خائنة؟"

صاحت بوليت بنبرة قاطعة: "لو أنكِ اتهمتِ نفسكِ بذلك لكذّبتكِ! هل تريدين أن أُصرّح لكِ بفكري تماماً؟ إنكِ كنتِ فداءً لإخلاصٍ شريف حتى اعترفتِ بأنك مذنبة".

اغرورقت عيناً لورانس بالدموع، وقالت متأثرة: "بارك الله في قلبكِ الطاهر يا بُنيّتي! يكفيني مكافأةً على ما قاسيت، تلك الكلمة التي نطق بها قلبكِ الطاهر. أجل، كان هنالك واجب عظيم وسامٍ أرغمني على الكتمان، وقد كذبتُ حين اتهمتُ نفسي".

– ولِمَ ذلك الكذب؟

– كذبتُ لأمنع وقوع مصيبةٍ أعظم من مصيبتي!

– وكيف تتحملين وحدكِ تبعة إثمٍ أنتِ بريئةٌ منه؟

–لم أتحملها وحدي، بل شاركني شخصٌ آخر تلك التبعة.

سألت بوليت بنبرة متوجسة: "وماذا حدث لذلك الشخص الآخر؟"

أجاب لورانس بصوت مثقل بالحزن: "لقد جاد بحياته، أما أنا فجُدتُ بشرفي".

فاصفر وجه بوليت، وصاحت مرتجفة: "ومن ذاك الذي قُتل؟"

– إن اسمه سِرٌّ لا يطّلع عليه أحد، حتى أبوكِ يجهله، ومع ذلك، فهو من قتله! وكان الواجب يقتضي أن أُطلع الكونت على هذا السر. ولما عزمتُ على أداء ذلك الواجب، ثار غضب زوجي، ولعنني والدي، ففقدتُ صبري وشجاعتي ورشدي. نعم، كنتُ مجنونةً، ولم يذهب عني جنوني إلا حين لقيتُكِ. أما الآن، ففي طاقتي أن أُبرّر نفسي؛ أن أحمل الكونت دي موري على الندم لأنه قتل رجلاً بريئاً، وطردني من بيته ظلماً، وأحلّ غيري محلي. ولكن تلك الزلات يستحيل إصلاحها ولا تداركها.

ثم التفتت إلى ابنتها، وأردفت: "أما أنتِ يا ابنتي، فلا بد أن تطوي في صدركِ ما كشفتُه لكِ، إذ لا بد أن أبقى في أعين الناس الزوجة الخائنة الساقطة".

قالت بوليت، وقد ترددت: "ومع ذلك فإنكِ..."

فأوقفتها لورانس قائلة: "دعي عنكِ ذلك، ولا تُرغِميني على الندم لأنني بثثتُ لكِ سِرّي، ولا تهدمي ما شيدتُه، بل اكتمي هذا السر. فهل تعدينني بالكتمان؟".

فأجابت بوليت، والدموع في عينيها: "سأكتم سركِ يا أماه، وإن لم أعي تماماً ما تريدينه مني، لكني أعلم أنكِ كنتِ مثال

للتضحية والشرف".
لاحظت لورانس كيف امتقع لون وجه ابنتها، وظهر عليها التأثر العميق، فتأثرت هي الأخرى لمشاعرها، وسارعت إلى تخفيف وقع الكلمات محاولةً تبديل مجرى الحديث بابتسامة رقيقة، ثم قالت بحنو:
– فلنحاول الآن الحديث عنكِ يا ابنتي، حدّثيني بكل ما مرّ بكِ منذ افتراقنا إلى أن جمعتنا رحمة هذا اللقاء المبارك. لقد بلغني نبأ مصاب العمة باسيليك، رحمها الله، تلك التي أحبّتك حبّاً جماً، واحتضنتك بقلب الأم وعاطفة الأخت. بكيتها كما تبكي الأخت أختها، ولكن دعينا الآن نفتح صفحات من ماضينا، عن تلك الأرض التي حملتنا، عن تلك الأيام التي عشناها في ظل سعادة خالصة، وعن أولئك الأحبّة الذين تركناهم خلفنا، وما زال دفء ذكراهم يتوهج في أعماقنا.
وما إن سَمِعَت بوليت كلمات أمها حتى تلون وجهها باحمرارٍ خجول، وكأن الحنين قد خضّب وجنتيها، وبدأت تبوح بما يختلج في قلبها، وتروي بصدقٍ وحرقة عن ذلك الحب الطاهر الذي ازدهر بعيداً عن أعين الأهل، حبٌ جمعها بذلك الشاب النبيل "جاستون دي فالبير" الذي غمرها بعطفه وحنانه، وكان لوجوده في حياتها دفءٌ لا يُضاهى. ثم رفعت عينيها بنظرة مفعمة بالعاطفة وصدق الإحساس، وقالت:
– اعلمي، يا أمي، أنني أموت ولا أتزوج غير ذلك الحبيب!
فاحتضنتها لورانس بقلب أمٍّ يعي ما معنى أن تنبض الروح حبّاً، وقالت بصوت تغمره الثقة وهدوء اليقين:
– ثقي، يا بنيّتي، أن جاستون دي فالبير سيكون زوجك، لا أرى أحداً أولى منه برعايتكِ وحمايتكِ. إن سعادتي معلّقة بسعادتك، ويسرّني أن يكون هو الوصي على قلبك وطريقك.
وانفرج اللقاء عن لحظات مؤثّرة، فافترقت الأم عن ابنتها على أمل اللقاء القريب، وعادت بوليت إلى بيت والدها حاملة في عينيها وميض الأمل ونداء الحنين.
أما الكونت دي موري، فلم يُعلن خطبة ابنته لأنيبال إلا بعد صراع داخلي طويل، صراع أدمى قلبه وأشعل في صدره ناراً من التردّد والرفض، لكن وضعه المالي المتردي بلغ حدّ العجز، ولم يعد يملك خياراً غير القبول، وهو لا يعلم أن قلب ابنته قد نذر حبّه لرجل آخر، وأن هذا الرباط الذي يرغمه عليه القدر سيُعد في قلبها خيانة لا تُغتفر.
حين جاء أنيبال ليطالبه بتنفيذ وعده، قال الكونت بصوتٍ ينضح بالتردّد:
– لا تحدّثني اليوم عن هذا الأمر، امنحني أياماً قليلة.
لكن الرجل الإيطالي أجابه بنبرة جافة لا تعرف اللين:
– حين كنتُ أبحث عن إنقاذك من العار، لم أطلب مهلة، بل قدمت لك يد العون في الحال، وقلت لك: هذا عرضي، وهذا شرطي. فكيف تراوغني الآن؟ عليك أن تُخاطب الآنسة بوليت.
فأطرق الكونت رأسه وقد تكسّر في عينيه الكبرياء، وقال بصوت متهدّج:
– لقد وعدتك، ولن أخلف وعدي.
ثم مضى مثقلاً بالحزن إلى مخدع ابنته التي كانت قد عادت من زيارتها، ودخل عليها وسألها:
– هل عدتِ مع وصيفتكِ؟
أجابت: "نعم".
قال بصوتٍ يغلب عليه التوتر: "لكن تلك الوصيفة لا تليق بكِ، سأبحث لكِ عمن تُناسب مكانتك". ثم أردف، وهو يتأمل وجهها المشرق: "هل زرتِ جدّيك؟"
أجابت بشيء من العتاب: "نعم، وهل تمنعني من زيارتهما؟"
أجابها: "لا، اطمئني، اذهبي إليهما متى شئتِ".
فما كان من بوليت إلا أن طوّقت عنقه بذراعيها امتناناً، فابتسم وقال:
– وددتُ لو أراك دائماً متهللة الأسارير... هذه أول مرة منذ عودتك من الهند أرى في وجهك هذا النور، كما كنتِ في الماضي.

فأجابته بوليت، وقد تلألأت الحكمة في صوتها:
– لكنها أيضاً أول مرة نلتقي فيها وحدنا.
تردد الكونت، وخالجه شعور بالضياع، لم يقوَ على البوح لها بما يثقل قلبه، وقال في نفسه: "لا أستطيع أن أوجهها بالحقيقة، لا يمكنني أن أخبرها أنني أزفها إلى رجل لأجل ظرفٍ قاتم لا يعلم به سوانا. ليكن الأميرال وزوجته من يتوليان هذه المهمة".
وفي اليوم التالي، توجه الكونت إلى بيت الأميرال. لم يكن الرجل في البيت، فأشار عليه الخادم بالانتظار في البهو، فقال الكونت:
– لا بأس، سأنتظر.
فسأله الخادم بأدب جم:
– هل أُبلغ سيدتي بوصولك؟
فأجابه بثقة، وقد ظنّ أنه يقصد زوجة الأميرال:
– نعم، بلا شك.
لكن المفاجأة بدت قاسية حين رأى لورانس تلوح أمام ناظريه، فقد انتقلت إلى منزل أبيها منذ عهد قريب، ولم يكن على علم بذلك. وما إن وقعت عيناه عليها حتى صاح مذهولاً:
– أأنتِ في هذا البيت؟!
توقفت لورانس، وقد بدت على ملامحها الدهشة والحذر من نبرة صوته التي لم تخلُ من السخط والاحتقار، ثم قالت:
– طردتني من بيتك، أفجئتَ الآن لتلوم والديَّ على كرم أخلاقهما في استقبالي؟
أجابها ببرودٍ أخفى وراءه ناراً لم تخمد:
– لا شأن لي بكِ، لكن لو علمت أنكِ هنا، لما أرسلت بوليت، ولا جئت بنفسي.
– إن ابنتك هي ابنتي أيضاً، ولم يخطر ببالي أن أُبعدها عنك. ولكن يبدو أن القدر العاثر أراد أن يجمعنا هنا، فهل ستستغل هذه الفرصة لتحرمني من رؤيتها مرة أخرى؟ وما دمت قد رضيت بتعذيبي، واطمأن قلبك لكل ما أنزلت بي من ألم، ولم تبقَ لديك وسيلة تسكب بها فوق جراحي مزيداً من العذاب، فإني، وقد نفد صبري، أتركك وحدك.
– بل ابقي. إن كان القدر قد جمعنا هنا، فلنستغله للحديث عن أمر يخصّنا. أريد أن أكلّمك عن ابنتنا.
قالت، وقد سكن الألم في صوتها:
– ما عساه يكون أشدّ قسوة من الكلمات التي أسمعتها لنفسي؟ لقد تجاوزتَ كل حدود السخط، حتى أنك ترفض أن أرى ابنتي. فما الذي ترجوه أكثر من ذلك؟
– ما فعلته لم يكن سخطاً أعمى كما تظنين. إن الحكم الذي أصدرته بقطع علاقتنا هو ما منحني الحق في رعاية بوليت بعيداً عنك، وقد اتخذت هذا القرار لأجل مستقبلها.
شهقت لورانس، وقالت بصوت متهدّج:
– لم يخطر ذلك ببالي قط.
ازداد انفعال الكونت، وقال بصوت ناضح بالمرارة:
– فعلتُ ذلك حفاظاً على شرفها... لا أريد لرجلٍ مخدوع أن يُقبّل جبينها ويشعر بأثر الخيانة في شفتيها!
ارتعدت لورانس من هذه الكلمات التي اخترقت قلبها، وقالت بصوت خفيض يغلي بالغضب:
– أيّ رجلٍ أنت؟!
– أنتِ من جعلني هكذا.
– وكيف ذلك؟
– إن الغضب الذي خلّفته خيانتك يعادل الحب الذي كنتُ أكنّه لكِ، فلا ترجُ مني رحمة، فإنك تطلبين من رجل جفّت

في قلبه ينابيع الرحمة.
قالت بحدة تقطع نياط القلب:
– إذن لا تتحدث عن حب! الرجل الذي يتجنّى على امرأة في الشدائد لم يعرف الحب يوماً!
فما إن سمع الكونت روجر تلك الكلمات حتى شعر بشيء يتكسر في داخله. ضحك ضحكة تنزف بالكمد، وراح يخاطب نفسه:
– إنها تجرؤ على اتهامي بعدم حبها؟! تجرؤ؟!
ثم رفع يديه إلى السماء، وكأنما يستنجد بمن لا يخذل، وقال بحرقة تنضح من أعماقه:
– إنها تجرؤ على ذلك، وأنا الذي وهبتها حياتي، ودافعت عنها بروحي، بينما كانت هي تخونني... دون أن تدري أنني كنت على أهبة الاستعداد لأضحي بحياتي من أجلها!
لكن يبدو أن تلك الكلمات لم تُجدِ نفعاً مع لورانس، إذ إن الأفعال كانت تنقض الأقوال نقضاً، فابتسمت ابتسامةً حملت في طياتها سخرية لاذعة، وقالت بنبرة تنساب من بين شفتيها كالسُمّ المذاب، وتُحيل كل حرف من كلماته إلى رماد:
– أنت تموت يأساً وغَمّاً؟! والله، لقد تسلّيت بي ربيعاً بأكمله، وبدا سلوكك أشبه بجنون عاشقٍ يذوق الموت كل ساعة، لا برجلٍ يدّعي الثبات!
تقدّم صوبها، وأسنانه تصطك من فرط الغضب، وقد امتزج صوته بمرارةٍ تكاد تُبكي الحجارة:
– نعم، أسرعتُ بالزواج من أخرى، وهذا ما ترددينه الآن، لكن من يعلم؟ لعل فراري منك لم يكن سوى محاولة بائسة للانتقام، للفرار من جرحك الذي لا يندمل!
وما كادت كلماته تبلغ مسامعها حتى هبّت نشوة غريبة في صدرها، وكأن قلبها رقص طرباً، فلم تستطع حبس سؤالٍ انساب من شفتيها بخفوتٍ يرتجف:
– أحقاً تعذّبت كثيراً؟
أمسك بذراعها بقوة، وكأن الألم هو الذي يستصرخه، وقال وهو يشدد على كل حرف وكأنه يلفظ اعترافاً وُلد من رحم الجراح:
– أتظنين أنني اقتلعت حبك من قلبي دون عناء؟ وهو منذ ثمانية عشر عاماً متغلغل في دمي، نابضٌ في عروقي، ساكنٌ في كل شهيقٍ أتنفسه؟
اضطربت أوصالها، وارتجّ كيانها كمن يسمع صوت ماضٍ يعود متخفياً في هيئة الشوق، وكأن الزمان قد انبعث من سباته بلونٍ جديد، فنظرت إليه نظرة مَن يجد لذّةً لا توصف في عذاب من أحبّ، ثم همست بكلمات كأنها أنفاس الروح:
– أحقاً أنك بكيت كثيراً؟
فأدار وجهه عنها فجأة، ورفع رأسه صوب النافذة، كمن أراد أن يفرّ من عينيها، ويمنحها لحظةً تتأمل فيها آثار ما خلفته الأيام فيه، ثم نطق بصوتٍ مبحوح يختلط فيه الألم بخشونة القلب المحطّم:
– انظري إليّ... إلى وجهي الشاحب، إلى عينيّ الذابلتين، إلى شعري الذي غزاه الشيب مبكراً... لا تسأليني إن كنتُ قد تعذّبت، فها أنا ذي، أحمِل آثار جراح لا يداويها زمن، ولا تخففها السنون. هذه الملامح التي أمامكِ ليست من أثر يومٍ واحد، بل من سنواتٍ أثقلتني حتى انحنى ظهري. لقد جعلني حبك شيخاً في سويعات قليلة، وكان الثمن... هذا العذاب!
نظرت إليه، وفي عينيها سؤالٌ صامت، وعبارة يتردد صداها:
– والآن؟
صاح فجأة، كمن انفجر قلبه من شدّة القهر، قائلاً:
– والآن؟ لقد حلّت البغضاء محل ذلك الحب الذي أعمى بصيرتي! نعم، أبغضكِ بكل ما في قلبي من مرارة، بكل ما في ذاكرتي من خيبات، بكل ما في أملي من ضياع... أبغضكِ، افهمي ذلك... إني أبغضكِ!
سمعت لورانس هذه الكلمات وكأنها موسيقى تعزفها أوتار قلبها، فتهلل وجهها، وتلألأت عيناها ببريقٍ غريب، وقالت وهي

تلهث بنشوة لم تعهدها:
– أنت تبغضني! أنت تبغضني! أعد عليّ هذه الكلمات! إنها أعذب في أذنيّ من وعود العشاق، وأشهى إلى قلبي من همسات الحب، لأنها برهانٌ على أنك لا تزال تهواني! كنت أظنك قد نسيتني، فكاد الحزن أن يهلكني... أما الآن، فها قد عادت إليّ الحياة، لأنك حين تبغض، فأنت تحب، وحين تثور، فأنت تعشق، وإن لم تهواني، لما أبغضتني!
تلقى الكونت كلماتها كما يتلقى المرء صاعقة أصابته في صميمه، فترنّح كمن سقط عليه سقف قلبه، وهتف في حنقٍ ممزوج بالذهول:
– هل تبلغ بكِ النذالة هذا الحد؟
فاقتربت منه، وقالت بثباتٍ أخفى تحت سطحه زلزالاً من العاطفة:
– نعم، لأنك لا تزال أسير هواي! إنك تظن أنك قهرت الحب، وما هو إلا يشتد رسوخاً في أعماقك... افعل ما شئت، وامنحني من عذابك ما تشاء، فحتى غضبك ولومك ولؤمك، كلّها أحب إليّ من الرضا الكاذب!
– بحق السماء، الزمي الصمت!
– افعل ما تشاء، جافِ، واهجر، وادّعِ النسيان... لكنك لن تفلت من حبّي، فأنت أسيري، شئت أم أبيت. خذ ابنتك، وحرّمني رؤيتها، واحتفظ بها لنفسك، لكنك حين تنظر في ملامحها، سترى وجهي، وحين تقبّلها، ستشعر بقبَلِي، وحين تضمها، ستلمسني!
تراجع الكونت دي موري يحاول الانصراف مستنداً إلى المقاعد والجدران:
– بربّك... الزمي الصمت...
فقالت برقةٍ أليمة:
– حسناً، سألزم الصمت... ولكن بشرطٍ واحد: أن تملك الجرأة وتقول إنك لا تحبني.
حاول الكذب، لكن الكلمات خانته، وارتجّ صوته وهو يتلعثم:
– لا أحب...
إلا أنه لم يستطع أن يكمل، فتنهد تنهيدة مخنوقة، كأنها اعترافٌ مذبوح، وقال:
– بل لا مفرّ من الاعتراف، رغم كبريائي، رغم خيانتك، رغم خجلي وثورتي... أن ما أفعله الآن نذالة، نذالة فرضتها عليّ، ولكنك أنتِ من دفعتني إليها. وما دمتِ قد أرغمتني على الاعتراف، فاسمعيها من قلبي الممزّق: نعم... رغم كل شيء، لا أزال أهواكِ!
كادت تصرخ قائلة:
– كُن على هواي، فلم أخنك يوماً!
لكنها كظمت صرختها، ولأنها علمت أن الدفاع الآن ضرب من ضروب العبث، فاكتفت بأن قالت بصوتٍ متنهّد:
– بوسعنا أن نُقرّ بهذا الحب دون أن يرى أحدنا الآخر، إذا اقتضى الأمر... سأكتم سرّك في قلبي، وأحفظه كما تُحفَظ الجواهر... ومهما طال الفراق، تظل روحانا متّحدتين، وداعاً يا روجر... أنت تحبني... أما أنا، فأعبدك عبادة!
وفي تلك اللحظة التي جاءت متأخرةً كثيراً، دقّ باب القدر ليعلن رحيل اللحظة الأخيرة. لقد عاد الأميرال وزوجته منذ ربع ساعة، ولما علما بوجود الكونت في البهو، انتابهما الذهول، وزادت دهشتهما حين عرفا أن لورانس هناك أيضاً، فقرّرا ألا يدخلا عليهما مباشرة. غير أن مرور الوقت أثار القلق في نفسيهما، فهبّا لملاقاتها، بعد أن تركا ضيفاً كان قد حضر لتوّه.
دخل الأميرال أولاً، فرأى لورانس وروجر واقفين، والانفعال مطبوع على ملامحهما، فحيّاهما وقال:
– لقد رغبت في لقائنا أيها الكونت؟
فالتفت روجر إلى لورانس قائلاً:
– لا بد لكِ أن تسمعي الحديث الذي جئت لأجله، فالأحداث المؤلمة التي فرّقت بيننا، لم تمحِ احترامي لك أيها الأميرال... ولهذا، جئت لأطلعك وزوجتك الفاضلة على أمرٍ عقدتُ العزم عليه، ويتعلق بابنتي...

قال الأميرال:
– وما هو؟
فأجابه الكونت، وعلى وجهه ظلٌّ من عبوس:
– عزمت على تزويجها.
فصاحت لورانس، والدهشة تعصف بصوتها كريحٍ هوجاء:
– تزويج بوليت؟!
– نعم، فقد ترسخ هذا العزم في نفسي مذ تمزقت عرى أسرتنا، إذ لم تعد حالتها تحتمل مزيداً من التبعثر بعد ذلك الانفصال. كنت قد فكرت في تزويجها دون أن أحدد من يكون الزوج... إلى أن وقعت حادثة مشؤومة دفعتني إلى اختياره: إنه أنيبال بلميري.
وحين نطق بذلك الاسم خفض صوته كأنما يلفّه الخجل أو الخزي، فراح الاسم يتردد في المكان كجرسٍ ثقيل يقرع سكون الوجوه، وقد تبدلت ملامح الحاضرين، فتلبّد الجو كأنما حلت بينهم مصيبة أطبقت على أنفاسهم.
ولم تمض لحظات حتى قطعت لورانس الصمت الحالك، فرفعت يدها إلى جبينها تمسحه بحركة يائسة، ثم قالت بصوت رزين حازم:
– هنالك أمر تخفيه، وهو الذي دفعك إلى النطق بتلك الكلمات. أفصح عنه، فإني لا أقبل أن تقايض سعادة ابنتي بثمنٍ غامض، وتُهديها لشقيق امرأة انتزعت مكاني دون أن تبين لنا علّة ما أقدمت عليه! تكلّم، فإني مصغية إليك.
وقد انقلب الحال في لحظة، فطأطأ الكونت دي موري رأسه بعد أن كان صوته يأمر، ونظراته تفرض السمع والطاعة، فتابع الأميرال مؤيداً كلام لورانس:
– نعم، لا بدّ أن نعرف السبب...
فأجاب الكونت، وصوته مثقل بالكآبة، كأن لكل كلمة يلفظها حجَر يسقط في هوّة:
– لهذا جئت، ولعلّكم ترأفون بي حين تطّلعون على حقيقة أمري. فقد خُذلت في الحب، وما كدت أفيق من تلك النكبة حتى أصابني ما هو أفدح؛ إذ خسرت أولاً شرف الزوج، ثم كدت أفقد شرف الرجل النبيل. وقعت في سلسلة من الحوادث التي يضيق المقام بسردها، فآثرت الصمت على الفضائح، واخترت أن أضحّي باسمي وكرامتي، ولم يبقَ بين يديّ سوى شبح رجل يُحاكم في محكمة الجُنح.
فصاح الثلاثة، وقد انتفض الفزع في أعينهم:
– أنت؟! أنت؟!
أجابهم بهدوء قاتل:
– نعم، أنا. غير أني لا أظنكم تشكّون في صدقي أو تنسبون إليّ خبثاً. أقصى ما أتحمّله هو غفلتي. وعندما تراءى لي الخطر، علمت أن الخسارة واقعة لا محالة، فكان لا بد من الاختيار بين طريقين: إمّا زنزانة المذنب، أو رصاصة الشرف التي يُطلقها رجل تلاحقه الدولة على ذنبٍ لم يتعمّده. وبينما كنت أُقلّب وجهي بين المصيرَين، جاءني من مدّ لي يد النجاة.
قالوا بنبرة متلهفة:
– من ذلك الرجل؟
– إنه أنيبال بلميري. عرض عليّ الخلاص من الورطة، وطلب في المقابل يد ابنتي، فقبلت.
وما إن أنهى كلامه حتى اندفعت لورانس من مقعدها كلبوةٍ يهددون أشبالها، وقد استجمعت في صوتها قوة الغضب ونقاء الحب قائلة:
– كلا! لن يكون ذلك! لقد وعدته، ولكنك لم تعاهده إلا عن نفسك!
وفي اللحظة ذاتها، انفتح الباب فجأة، ولاحت بوليت، وهي تسير بخطى ثابتة، وكأن القدر ساقها لتقول كلمتها في محكمة العائلة. تقدمت صوب والدتها، وقالت بثبات:

– وبوليت تفي بوعد أبيها. أنا مستعدة للزواج من السيد بلميري، يا أبي.
كانت قد حضرت مع وصيفتها لزيارة جدّيها، فلما صادفت الأميرال عند مدخل البيت، علمت بوجود والدها. أحسّت أن الحديث سيدور حولها، فآثرت أن تتوارى خلف الباب تُنصت لحديث يُقرّر مصيرها. سمعت كل ما قيل، وتملّكها اليقين بأن ذلك الزواج سيكون ضياعاً لسعادتها، لكنها في سبيل الوفاء لأبيها، أعلنت رضاها المؤلم.
غير أن الجسد لم يطاوعها كما طاوعها صوتها، فخذلتها قواها، وكادت تهوي لولا أن أمها هرعت لاحتضانها. صاحت لورانس، وقد تبدّلت في لحظة إلى أمٍّ ترى فلذة كبدها تذبل بين يديها:
– ابنتي! ابنتي! عودي إلى صوابك! تراجعي عن كلماتٍ لفظتِها دون روية! إنك بذلك تفقدين حياتك وسعادتك!
فأجابتها بوليت بصوتٍ هادئ، كمن عقد العزم ومضى فيه:
– بل أشتري شرف أبي.
ثم التفتت إليه، وقالت بنبرة مملوءة بالمحبة والصفاء:
– لقد أحسنت الظنّ بإخلاصي، وأحسنت فيما فعلت.
أسندت رأسها إلى كتف أمّها، ثم همست في أذنها بصوتٍ بالكاد يُسمع مرتعشٍ من الألم:
– يخيّل إليّ أنّ شيئاً قد انقطع في قلبي... لا أعلم ما الذي أعانيه... لا أشعر بالألم... آه، يا أمّاه... أظن أن أجلي قد اقترب!
فتفرست لورانس في وجهها، فإذا به قد شحب شحوب الموت، واصفرّت ملامحه كأنها كُسيت لون الفجيعة، كميتة أُخذت منها الحياة على حين غرّة. وأنصتت، فرأت شفتيها تتحركان بأنينٍ خافت، كأنّ الحياة تتسلّل من بين الكلمات حتى همست بصوتٍ بالكاد يُسمع، فيه كلّ ما في الوداع من وجع:
– وداعاً... يا أماه.
ثم انفلتت من بين يديها، وسقطت على الأرض، كزهرة انكسر ساقها فجأة.
في تلك الثواني الخاطفة، انطلق صراخ لورانس كنبضٍ مكسور:
– وا مصيبتاه!
أطبقت بذراعيها على جسد ابنتها تضمّها إلى صدرها، وهي تصرخ بدموعها تشقّ بها صمت الأرض والسماء. وقد أصيب الكونت والأميرال بالذهول من شدة الألم الذي ألمّ بالأم، ومن الغيبوبة التي أغشت الابنة. وبعد جهدٍ جهيد، حملوا بوليت ومدّدوها على أحد المقاعد. أخذت الجدة تفرك صدغيها بالماء، فيما رشّت لورانس قطرات الحياة على شفتيها المرتجفتين، ثم صاحت فجأة، وفي صوتها رجاء:
– لقد تحركت... إنها لا تزال حيّة!
أجهشت بالبكاء، فلم تكد دموعها تتوقف حين التفت الأميرال إلى الكونت، وقال بنبرة حزينة:
– إذا كنتَ قد لقيتَ إساءة، فقد كان انتقامك أشد وقعاً وأقسى أثراً...
فطأطأ الكونت رأسه، وقد انفجرت دموعه بصمت. تركوها وحيدة مع ابنتها، وهي تظن أن ما حدث مجرد تعبٍ وإرهاق، فلا شيء سوى الراحة يعيد لابنتها العافية.
لكن بوليت، وهي مغمضة العينين، قبضت على يد أمها برقة، ثم بدأت تهمس، كأن كلماتها تأتي من عمق الوجدان:
– فكّرتُ في دقائق مضت... نحن، أنا وأنتِ، نصيبنا أن نتقاسم العذاب... دون أن نكون مذنبتَين. كأننا اشتركنا في الحب، فكان لا بد أن نشترك في الآلام. ولا أرى في اقتراحنا سوى ما يحفظ لكلٍّ منّا شجاعته.
فصاحت لورانس، والدمع يفيض بعينيها:
– أما وجدتِ غير الفراق سبيلاً؟
فأجابتها بوليت بهدوء من أيقن المصير:
– كلا، لقد تذكّرتُ طفولتي، حين كنت أقع فأنهض وأجري، ما دامت يدكِ لم تلمسني. لكن حين كنتِ تمسكين بي

وتقعين معي، كنتَ أبكي، لا من ألمي، بل من ألمك. وها هو ذا المشهد يتكرر، ولعلّ اعتمادي على نفسي ينقذني من مزيدٍ من العذاب.
ثم نهضت رغم ما بها من وهن، وقالت:
– أودّعكِ يا أمّاه.
أمسكت لورانس برأس ابنتها، وضمتها إلى صدرها بحرقة ولوعة، وكأنها تحتضن كل ما تبقى من روحها، ثم خرجت بوليت مع والدها إلى المركبة عائدة إلى بيت أبيها، وتاركة وراءها قلب أمها يتمزق بالفراق، ويختنق بالأسى.

الفصل العاشر

بعد مضيّ يومين أو ثلاثة على تلك الوقائع الجسام التي قلبت موازين السكون، دخل خادم الفندق على السيد إيليا دراك، وقال بصوتٍ حمل شيئاً من التردّد:

– إنّ الأمير يطلب لقاءك.

فرفع دراك رأسه، وقد اعتراه الضيق، ثم قال بنبرة امتزج فيها السأم بالاستنكار:

– أما انتهينا بعد من هذا الأمير؟ ... على أية حال، دعه يدخل.

وما إن خلا به حتى بادره بالسؤال:

– كيف حال أولئك القوم؟

– إنهم في حالٍ أسوأ مما مضى... أما زلت مُصرّاً على السفر؟

– بلا شك... سأغادر هذه الليلة إلى إنجلترا.

– إذن ستجتمع بأسرتك؟

– ليست لي أسرة.

– فبأصدقائك إذاً؟

– ولا أصدقاء لي.

– فعلى الأقل، ستعود إلى وطنك؟

ابتسم السيد دراك، بيد أنها لم تكن ابتسامة الفرح، بل مرارة التجارب المتراكمة، وقال:

– وطني؟ تقصد ذلك الموضع الذي وُلدت فيه وغادرته وأنا بعد طفل؟ لا وطن لي.

– ما دام الأمر كذلك، فلِمَ ترحل عن باريس، وفيها من لا يزال يحتاج إليك؟

– إذا وُجد من يحتاج إليّ، فهذا أدعى لأن أهرب... لكن، قل لي، من هو ذاك الذي يحتاجني؟

– سيدتي الصغيرة.

– ولكن... والدها معها.

– نعم، وذلك من سوء حظها!

– وأمها؟

أطرق ملطار برأسه، وقال بأسى يخنق الكلام:

– لا... للأسف الشديد.

– ألم ينقّض أمر لورانس مع أبيها؟ أولا تجتمع بوليت بأمها كل يوم في بيت الأميرال؟

– حدث أمر جديد.

كان دراك جالساً منشغلاً بأمتعته يُحكم إغلاقها كما يُحكم المرء إغلاق قلبه على جرح لا يُشفى، لكنه توقف بغتة، وقد انتفض في داخله شيء غامض، فاستدار صوب ملطار قائلاً:

– وما الذي حدث؟

قال ملطار، وقد ثقُلت كلماته كأنها تنهض من أعماق همٍّ دفين:

– ذهبت بالأمس، فالتقيت بالكونتيسة.

– أيّ كونتيسة تعني؟ هنالك اثنتان.

فقال ملطار بانفعال:

– لا أعترف سوى بواحدة... السيدة لورانس. أخبرتني أن ابنتها ترفض زيارتها، وتقول إنها عازمة على الزواج.

ارتسمت على وجه دراك مسحة قلق:

– أتقصد ذلك الرجل، بلميري، الذي حدّثتني عنه من قبل؟ ألم يُلغَ هذا المشروع؟

– كلا، وا أسفاه... ولا أحد قادر على إلغائه.
عندئذ تبدلت نبرة صوت دراك، واختلط فيها القلق بالتصميم:
– بل هنالك وسيلة، لطالما خطرت لي.
تعلّق قلب ملطار بكلماته، وسأله بنبرة متلهفة:
– وما تلك الوسيلة التي تنقذ بوليت من هذا الزواج المشؤوم؟ فمولاتي الصغيرة تموت... ولا شك.
همس الإنجليزي، كمن يخاطب نفسه:
– تموت... ولا شك.
ثم نهض عن مكانه، وقد استقر العزم في عينيه مردفاً:
– أتظنّ أن بوليت ستقبل رؤيتي إن جئتُ أعرض عليها ما يخلّصها من هذا الزواج المقيت؟
– نعم، بل سيكون من دواعي سرورها أن تلتقي بك.
قال دراك، وقد انطبعت الإرادة في ملامحه:
– إذن، عد إليها، وأخبرها أنني أطلب لقاءها بعيداً عن أعين أبيها... إنني لا أحبه... إنه مصدر هذه المِحن كلّها، وفي ظنّي أنه لا قلب له، ولا نفس، ولا شعور.
–سأدخلك المنزل دون أن يراك أحد.
وبعد ساعة، كان السيد إيليا دراك في بيت بوليت... فما إن رأته حتى اندفعت صوبه، وسقطت بين ذراعيه. شعرت، لأول مرة، أن ذلك الرجل وحده هو من يقف إلى جانبها في هذا العالم المعتم. غامت عيناها بالدموع، وهمست بصوت مختنق بالبكاء:
– بما أعظم سروري بلقائك... شكراً لك.
ربت على كتفها بلطف، وقال:
– أتيتُ أول الأمر لأقضي بعض الوقت... لكن، هل صحيح ما أخبرني به ملطار؟ هل عزموا على تزويجك؟
أطرقت برأسها، وقالت بشيء من الارتباك:
– لقد جانب الصواب ملطار... فأنا من قررتُ الزواج.
– تكاد النتيجة تكون واحدة... ولكن، ما مصير دي فالبير المسكين إذا تزوّجتِ؟
فصاحت بحرقة، وقد انعصر قلبها ألماً:
– واحسرتاه على جاستون!
قال دراك، وقد امتلأت عيناه بشجن عميق:
– ومع ذلك، فما زالت هنالك وسيلة تحول دون ذلك الزواج، وليس عليكِ سوى أن تقولي كلمة واحدة... ثمة أمر لم أُطلعك عليه من قبل: أنا أجيد فنون الرياضة البدنية.
نظرت إليه بوليت، وبدت في نظرتها لمحة حنان قائلة:
– أعلم أنك سبّاح ماهر.
– نعم، وأجيد السباحة... لكن هنالك أمراً آخر أتقنه أكثر... أنا أُحسن استخدام السيف، وأُدرّس فنونه، وأُصيب الذبابة عن بعد ثلاثين خطوة... لم أستخدم يوماً هذه المهارات، لكنني أظنّ أن الوقت قد حان... أنا لا أحبّ خطيبكِ بلميري، وإن لم أره، فهل يسوئك أن أُجرّب نفسي معه؟
فقالت برجاء يكاد يُجهز على أنفاسها:
– لا، أتوسل إليك... لا تفعل! لم يُسئ إليّ... كان كريماً مع والدي، وصدّقني... وأنا لا مهرب لي... لا بدّ لي أن أغدو زوجته... لا مفرّ، أفهمت؟
أجابها، وهو يحاول كتمان ما اضطرم في قلبه من ألم:

– فمتى يكون الزفاف، إن شاء الله؟
– في أقرب وقت... قد يكون في غضون أسبوعين.
فهم دراك ما لم يقال، ونهض من مقعده مادا يده لوداعها، فإذا بالباب ينفتح فجأة، ولاح أنيبال بلميري. سحبت بوليت يدها بعفوية، ففطن دراك إلى أنها تُفضّل أن يبقى اللقاء طيّ الكتمان. تبادل الرجلان النظرات، ثم خرجا معاً.
قال أنيبال، وهو يتفرس في ملامح دراك:
– هل أنت يا سيدي من رافق خطيبتي إلى باريس؟
– نعم، أنا... وهل أنت صاحب الحظ السعيد الذي قرر الاقتران بمن كانت رفيقتي في السفر؟
– نعم، أنا ذاك صاحب الحظ الوافر.
قال دراك، وقد ارتسمت على وجهه أمارات السخرية:
– ولكن، لمَ تقرر هذا الزواج سريعاً؟
أجاب أنيبال بغير اكتراث:
– لأنني افتتنتُ بمحاسن الآنسة بوليت، فهل تجد ذلك أمراً غير طبيعي؟
– بل أجد ذلك طبيعياً للغاية، ولا شك لدي أن هذا الهوى المفاجئ كان متبادلاً؛ أي إنه نزل بالخطبة والخطيبة نزول الصاعقة، كما يقولون في فرنسا.
شعر أنيبال ببعض السخرية وراء تلك الكلمات، وكاد ينفجر غاضباً، لكن الإنجليزي سبق إليه سائلاً:
– هل لك أن توضح أمراً أشك فيه؟
– ماذا؟
– إنني ما نطقتُ باسمك إلا وتردَّد صداه في ذاكرتي، كما لو كنتُ قد سمعت به من قبل، أو كأنّه وقع مألوف في أذني.
وعندئذ شحب وجه أنيبال، وتبدَّد لونه، لكنه تمكّن من كتمان اضطرابه، وقال بصوتٍ حاول أن يجعله ثابتاً:
– لا عجب أن يكون اسمي معروفاً، فالسيد بلميري، عمي، كان رجلاً ثريّاً قد حاز حظوة في إدارة مصرف كبير، وقد ترك لي ولأختي ميراثاً وافراً بعد وفاته. ولعلّك سمعت باسمي مرتبطاً بأبي، لا بعمي.
فقال دراك، وقد علت نبرته مسحة من التوجّس:
– وهل مضى زمن طويل على هذا الإرث الذي تتحدث عنه؟
فأجابه أنيبال، وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:
– لا، سنة واحدة فقط.
قال دراك، وهو يحدّق فيه بعينين فيهما بصيرة خفية:
– لم يمضِ زمنٌ طويل إذاً... لكن، هل أنتَ إيطالي؟
– نعم، إيطالي الأصل، لكنني وُلدت في الهند.
فقال دراك، وقد بدأت ملامحه تكتسي شيئاً من التأمل العميق:
– حسناً! بدأت أفهم... لا بد أنني سمعتُ باسم عائلتك وأنا في الهند، ولكن ضع في حسبانك عزيزي أمراً نسيتُ أن أخبرك به، وهو أنني تلقيتُ للتو مهمة شاهِد في زواجك عهدتُ إليَّ بها خطيبتك.
– لقد سرني وقوع اختيارها عليك.
– يا ليتني أتعرف على شقيقتك، فإنني لم أرَها بعد.
– ستكون في منزلها في مساء الغد، وموعد استقبال الزوار أيام الجمعة، فأهلاً وسهلاً بك.
– وداعاً يا سيد بلميري... وبقيت لي كلمة أيضاً أرجو أن تقولها لخطيبتك، هي أنني لا أزال مستعداً لإسداء اليد التي رفضتها.
– بوسعك الاعتماد عليَّ في ذلك.

انصرف دراك بينما استغرق أنيبال في التفكير قائلاً: "كم يثرثر هذا الرجل، لكن ما هو المقصود بتلك اليد التي يتحدث عنها؟ أتمنى أن أعرف".

حلَّ صباح يوم الزفاف كما يحلّ الصمت الثقيل قبل العاصفة. قرر أن يكون موعد الحفل عند الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يتبقَّ من الزمن إلا خمس ساعات تفصل بين بوليت وبين مصيرها، بينها وبين الرجل الذي سيظلُّ إلى جانبها مدى الحياة، أو كما ظن الجميع. راحت تهمس لنفسها بصوتٍ خفيض أشبه بأنينٍ مكتوم:

– ما لهذا اليوم من غد حين أحدق فيه.

مدَّت يدها إلى جيبٍ فستانها تتحسس خنجراً صغيراً جلبته من الهند، وقد حمل نصلاً مسموماً، يعرفه أهل إفريقيا السوداء، فيكفي وخزه ليفتك بضحاياه، إذ يتسلل السمُّ في الدم كالهلاك الزاحف. لم يكن ذلك السلاح وليد صدفة، بل ذكرى من لحظة فارقة حين نظر إليها السيد دي فالبير ذات مساء قائلاً:

– إن قضي عليك، فليكن هذا الخنجر سبيل خلاصي من الحياة بعدكِ.

فجزعت بوليت من وقع كلماته، وانتزعت الخنجر من يده، لكنها لم ترمه، بل احتفظت به كأنما ليومٍ كهذا، وقالت في سرها:

– إن قُتلتُ بيد غير جاستون، فلعلّ هذا الخنجر يكون المنفذ.

وعندما دقَّت الساعة في صمتٍ مشوبٍ بالتوتر، تذكرت بوليت وعدها للسيد دراك بأن تعطيه شيئاً في هذا الموعد. كانت الرسالة التي كتبتها في الليلة الماضية تنام في جيبها كقنبلة مؤجلة الانفجار. لكن الساعة تأخرت حتى الرابعة والربع، وحين وصل السيد دراك، اعتذر قائلاً إنه كان ينتظر رسائل برقية عاجلة. سألته بوليت وقد علَت نبرتها بشيء من القلق:

– أي رسائل برقية تلك؟

فأجاب ببرودٍ غامض:

– لا علاقة لك بها. سأعود إلى فندق اللوفر بعد أن أتسلّم مهمتكِ، ولن أخرج منه إلا إلى الكنيسة. فما الذي تريدينه؟ هل أعجبكِ اقتراحي؟ أما زلتِ تذكرين مهارتي في استخدام السلاح؟

فأجابته بوليت وابتسامة حزينة تظلل وجهها:

– كلا، لا أرغب أن يُقتل أحد بسبب ما أفعله. لكنك تعلم أن والدتي لن تحضر، وتعرف أن عدم حضورها يجعلني أضعف وأشد تردداً. لذلك قررت أن أكتب لها رسالة تصل إليها بعد خروجنا من الكنيسة. هل تتكرم بإيصالها؟

– بالطبع، سأفعل ذلك فور عودتي إلى الفندق، لا تترددي في تسليمي إياها.

– لا، لا تسلمها إليها الآن، بل بعد ساعة من نهاية الحفل. هل أستطيع أن أعتمد عليك؟

– نعم، وأنتِ تعلمين أنني أفعل دائماً ما تطلبين.

– هل تقسم بالله أنك ستسلّمها بعد ساعة من الحفل؟

– كيف لا؟ أقسم لك.

– أشكرك، يا صديقي، أثق بك.

ثم مدت يدها لتصافحه وقالت وهي تبتعد:

– سأذهب الآن لتعديل زينتي؛ يجب أن أبدو بأبهى صورة، كما تفعل كل عروس في مثل هذا اليوم.

غادرت مسرعة، وما كادت تختفي عن ناظري السيد إيليا حتى التقى بالخادم الهندي ملطار، وبسرعة خاطفة ناوله الرسالة قائلاً:

– خذ هذه الرسالة، وأوصلها إلى والدة بوليت في الحال، لا تؤخرها.

– لكنك وعدت السيدة الصغيرة أن تُسلَّم الرسالة بعد الحفل.

فأجاب بنبرة لا تحتمل جدالاً:

– لا تتأخر، وإلا وصلت متأخرة للغاية. إن بوليت في هذه الرسالة تودع أمها الوداع الأخير.

وما إن سمع الخادم هذه الكلمات حتى انطلق كالسهم حاملاً رسالة قُدِّر لها أن تقلب مصيراً.
أما السيد إيليا فمضى في طريقه إلى الفندق.
وفي منزل الكونت دي موري، وصلت الكونتيسة الجديدة بصحبة شقيقها، وأبدت رغبتها في لقاء بوليت قبل الجميع، فأجابت بوليت:
– أحتاج بضع دقائق فقط لأستكمل زينتي، وسألحق بك إلى بهو المنزل.
وفيما كان أنيبال وشقيقته ينتظران، علت فجأةً نبرة الكونتيسة دي موري وهي تقول بعزم:
– لا بد لي من الدخول الآن.
توقفت جرّجونّة، وتعرفت إلى لورانس، فتلاقت الكونتيستان، وقالت الإيطالية مستنكرة:
– أنتِ هنا؟
فأجابت لورانس بعينين يشتعل فيهما القلق:
– لا أدري أين أنا، لكنني أعلم أمراً واحداً يهمني أكثر من الحياة بأسرها؛ إن ابنتي عازمة على الانتحار، وقد جئت لأمنع ذلك.
فصاح أنيبال وشقيقته معاً مدهوشاً:
– الانتحار؟!
قالت لورانس:
– نعم، لتتفادى الزواج بالرجل الذي تريدونه لها.
فصاحت جرجونة:
– أنت مجنونة! ولا مكان للمجانين هنا، اخرجي من هذا المنزل!
– لن أخرج قبل أن أرى ابنتي وأرافقها.
تقدم أنيبال وشقيقته ليمنعاها من الدخول، لكن جرجونة صاحت بعزم وكبر:
– لن أقبل المساعدة إلا من زوجي، وحده يحق له أن يفصل بيننا. أنيبال، اذهب وادعه.
ذهب أنيبال وعاد سريعاً بالكونت. وما إن لاح حتى رفعت جرّجونّة صوتها:
– تقدم يا سيدي، وأنقذني من هذه المرأة المتسلطة.
فقال الكونت بصوتٍ غاضب:
– أتعرفين ما الذي فعلته بدخولكِ هذا المنزل؟
أجابته لورانس:
– لم آتِ للنقاش، بل لأرى ابنتي، فكل أم يجب أن تدافع عن حياة ابنتها أولاً.
وما إن سمع ذلك حتى ارتجف قلبه، وسألها:
– هل هنالك خطر على حياتها؟
قالت كلوديا بنبرة متلهفة:
– هذه المرأة تتخيل خطراً لا وجود له. تظن أن زواج ابنتها من أنيبال بلميري هو حتفها، وتريد أن تُقنعك بخلاف ما قررته.
لكن لورانس لم تلتفت إلى كلماتها، بل أخرجت الرسالة وقالت:
– هذا الزواج يعد حكماً بالإعدام على ابنتك، وهذه الرسالة هي الدليل. كانت ستُسلَّم إليّ بعد الحفل، لكن ذلك الصديق أوصلها قبل الموعد، وقد قرأنا أنا ووالدتي هذه الرسالة الموجعة. لو وصلتني متأخرة، لكانت بوليت الآن في عداد الموتى. اقرأ هذه الكلمات، وانظر بنفسك.
نظر الكونت إلى الرسالة، وقرأ، فارتج قلبه، وعرف الحقيقة؛ فابنته تهوى جاستون، وتكره الزواج المفروض عليها. وعندئذ

التفت إلى لورانس قائلاً:
– اطمئني، إن بوليت ما زالت على قيد الحياة، ولن يتم هذا الزواج. نحمد الله أن الوقت لم يفُت.
فقالت الإيطالية باحتقار:
– كان ينبغي لي ولشقيقي أن نُدرك مسبقاً خيانة ذلك الرجل الذي تاجر بشرفه، وباع كرامته بأبخس الأثمان.
صاح الكونت:
– بل أنتِ واهمة. إنني لا أنسى ما في ذمتي لكما من دين، غير أنني، عوضاً عن أن أُحمّل ابنتي عبء سداده، قررت أن أفيه بنفسي هذه الليلة... فاطمئنا، إذ إن شرف الرجل النبيل لا يبقى أسير أيديكما، ولا أسير أيدي سواكما. ودمي، لا مالي، هو الذي سيسدد هذا الدين العصيّ على القضاء.
صاحت لورانس:
– أتعني أنك ستُزهق روحك من أجل المال؟! إن كان لا بد من الموت، فسأنقذك أنا وابنتك معاً!
قالت الإيطالية مدهوشة:
– أنتِ؟!
وقال الكونت:
– كيف ذلك؟
أجابته لورانس:
– حين طلقني القاضي، سلَّمتني مبلغاً يقدّر بثمانمائة ألف فرنك. هذا المال لك يا روجر.
– لا أستطيع قبول عطيتك، وأنت الشخص الوحيد الذي أرغب في مساعدته.
– إذاً الأب والابنة إلى المصير ذاته، وذلك لأن الأم...
قاطعها قائلاً:
– لأن الأم مجرمة، وهذا جزاء الزانية.
ارتجفت لورانس من وقع كلماته، ثم رفعت رأسها وقالت بصوتٍ هادئ:
– كفى، لقد تعبت من الخجل واليأس. أما الآن فنفسي تنهض ثائرة ورأسي يرتفع.
صاح الكونت: "ما معنى هذا الكلام؟"
في تلك الأثناء، دخلت زوجة الأميرال إلى القاعة، ويذكر القراء ما قالته لورانس منذ هنيهة؛ فإنها قرأت ووالدتها معاً رسالة بوليت، فبادرت لورانس مسرعة، أما أمها فتأخرت عنها إلى ذلك الحين، صاحت لورانس:
– تعالي يا أماه!
فبادرتها أمها قائلة: "وماذا عن بوليت؟"
– إنهم يمنعونني من إنقاذها.
رفعت الأم حاجبيها بدهشة وقالت: "ماذا تقولين؟"
– أقول إن الكبرياء لا بد أن يسوق الكونت دي موري إلى أحد أمرين: إما أن ينتحر، وإما أن يقتل ابنته.
فاستدارت الأم صوب الكونت، وقد تلبّسها الذهول قائلة: "أصحيح ما تقول؟".
فأجابها بهدوء: "إني أُحكّمك في هذه القضية".
– تُحكّمني أنا؟
– نعم.
نظرت إليه لورانس وقالت: "وهل ترضى بحكمها؟"
فقال بنبرة واثقة: "نعم، أرضى".
– وهل تُقسم على هذا الرضى؟

فرفع يده وقال بصلابة: "نعم، أقسم".
وعندئذ قالت لورانس: "إذن، دعني أخلو بوالدتي، فلا بد لي أن أحدثها على انفراد".
فنهض الكونت، واتجه إلى زوجة الأميرال، وقال: "إنني أُسلّمكِ ما هو أعز عليّ من الحياة... إنني أُسلّمك شرفي".
فأجابته المرأة وقد علت نبرتها مسحة من النبل: "وأنا لحريصة عليه، فلا تخشَ شيئاً".
فانحنى الكونت ومضى ترافقه زوجته الثانية، بينما أغلقت الأم الباب خلفهما، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت: "تكلمي الآن".
قالت لورانس: "أنتِ تعلمين يا أماه أن الكونت دي موري يريد أن يُزوّج بوليت ببلميري لينقذ شرفه.
– أجل، أعلم.
– وأنت لا تجهلين أن هذا الزواج حكمٌ على بوليت بالموت... فأردت أن أنقذ من أحب، فاقترحت على الكونت أن أهب له البائنة التي وصلَت إليَّ منك يوم زفافي، وردّها هو إليَّ يوم طلاقي.
– فماذا كان جوابه؟
– رفض المال.
قالت الأم وقد بدت عليها الصلابة: "ولقد أصاب، فرُوجر لا يقبل هبتك".
فصاحت لورانس بحرقة: "لكن فكّري في النتيجة! أنتِ تحكمين على ابنتي بالموت! وبوليت لا تملك إلا أن تُضحّي بنفسها لتُنقذ أباها بأي ثمن، وقد عزمت على الانتحار... فلا بد أن يهلك أحدهما ليبقى الشرف حياً!".
– ولكن ذلك هو قضاء الله، يضرب الأمهات في أولادهن.
قالت لورانس بكل ما فيها من سكينة متألمة: "لو لم أكن مذنبة لقبل الكونت عطيّتي. أليس كذلك يا أماه؟".
– نعم، هو كذلك.
– فاعلمي إذن أنني بريئة... براءة الذئب من دم ابن يعقوب.
فصاحت الأم مذهولة: "ما هذا الذي تقولين؟ آه!... أرأيتِ؟ ها أنتِ تلجئين إلى الكذب، بعدما أعرضتِ عنه، وذلك لتنقذي ابنتك بوليت فحسب!
– لست أكذب، يا أماه. وأظنكِ واثقة من صدقي.
كان في لهجتها من الصدق ما حبس الأنفاس، فدهشت الأم، ثم مالت إليها يغمرها التأثر والارتجاف، وقالت: "ألم تكوني مذنبة؟"
فأجابت لورانس بنبرة هادئة: كلا، يا أماه، وأقسم بالله وملائكته أنني لم أهوَ إلا زوجي رُوجر، ولم أسلّم نفسي إلى سواه قط".
"إن القسم وحده لا يغني عن البرهان في مثل هذه الأمور".
– لا تطلبي مني برهاناً، يا أماه.
قالت الأم بإصرار: "لا بد من برهان... فحياة ابنتك متوقفة عليه".
– فهل تأمرينني باعتباره أمراً واجب التنفيذ؟
– نعم، فتكلمي أيتها الابنة المنكودة الطالع.
– إذن أتكلم!
– وماذا عساك أن تقولي، وشريكك في الإثم قد سقط صريعاً أمامي؟
رفعت لورانس عينيها إلى السماء، وقالت بهدوء: "شريكي في الإثم؟".
– أجل، لقد سمعت اعترافه المطابق لاعترافك، ورأيته يُقتل ولم يُسلّم الرسائل التي كانت ستؤكّد جرمك.
– تلك الرسائل لم تحتوِ سوى سر مولده، وكانت مكتوبة بخط والدته.
أخذ القلق يتسلل إلى ملامح مدام دي لامارش، وقالت باضطراب: "بخط والدته؟ تكلمي! هل فقدت أمه تلك الرسائل؟

ولكن ما شأنك به؟ ولمَ تخفين سره، وتبذلين شرفك في سبيله؟"
قالت لورانس بصوت مرتعش: "لقد كتم هو السر، وبذل دمه في سبيله".
– إنه معذور، فالأمر يخص والدته.
فأخفضت لورانس رأسها، وغطّت وجهها بيديها، وقالت بصوت متهدج: "وأنا أيضاً معذورة، لأن الأمر يخصك، أنتِ، يا أماه!"
أطلقت السيدة دي لامارش صرخة مروعة، ونهضت تتأرجح وهي تمسك بقلبها بين راحتيها، ثم عادت إلى لورانس، رفعت رأسها تتفحّص عينيها بنظرة تنفذ إلى أعماق الروح، ثم سقطت على المقعد، بينما ابنتها جاثية أمامها، وقالت الأم بصوت تتقطّعه الزفرات:
– بذلتِ نفسك من أجلي! كابدتِ العذاب والعار لأجلي! رضيتِ بالخزي، وصرتِ ضحية شرفي!
قالت لورانس باكية: "أماه... أماه!"
صرخت الأم وهي تنتحب: "وكان ذلك القتيل ولدي؟! ولكن... لمَ لم يتفتّت قلبي حين سقط أمامي؟".
وانفجر بكاؤها على ذلك الابن الذي خُلعت منه منذ الطفولة، ولم تعرف له مصيراً، ولم تره إلا في لحظة موته بين يديها.
– عذراً يا أماه، عذراً لأنني لم أستطع كتمان هذا السر زمناً أطول. عذراً إن كنتُ السبب في دموعك ويأسك، لكن لم يكن في طاقتي السكوت بعدما أمرتني بالكلام. ما أردت إلا إنقاذ بوليت، ابنتي الوحيدة، وقد بذلت نفسي لتكتم سرك، وها أنا مستعدة لأن أُضحّي بالعالم بأسره لأُنقذ ابنتي.
قالت الأم وهي تلملم دموعها: "نعم، وهكذا تفعلين ما عليك، كما سأفعل أنا ما يجب عليّ".
قالت لورانس وقد اتسعت عيناها: "وما معنى هذا الكلام؟"
اتجهت السيدة دي لامارش نحو الباب، وأطلت على الكونت دي موري وزوجته الإيطالية، ثم دعته للدخول إلى البهو.
أرادت كلوديا وأخوها اللحاق به، غير أن زوجة الأميرال أوقفتهما قائلة: "كلا، يدخل الكونت وحده، ثم أناديكما بعد قليل".
ولما خلا الكونت مع لورانس وأمها، قالت السيدة دي لامارش بصوت عميق:
– اعلم يا رُوجر أن تلك التي زوّجناك بها، أنا والأميرال، كانت نموذجاً للطهر والفضيلة والعفاف.
قال رُوجر: "ولهذا أحببتها فيما مضى إلى حين.."..
– إلى حين أن حملت ذنباً لا يخصّها، ورضيت بأن تكون ضحية الشرف، وشهيدة الشهامة.
صاح روجر: "ماذا تقولين؟".
فقالت لورانس برجاء: "أماه... أماه!".
– ألم تقولي إنكِ تبذلين العالم كله فداءً لابنتك؟ أما أنا، فإني لا أبذل سوى سرّي.
– أناشدك الله، لا تزيدي كلمة يا أمي...
فلم تُجِبها، بل قالت بصوت تختلط فيه نغمة الحزن بروعة الاعتراف:
– اعلم يا روجر أن تلك التي كانت زوجتك قد ارتضت أن يسقط الشك على رأسها ظلماً، وأن تُوصم بالتهمة في عرضها وفاءً وكرامة، فما ذاك الرجل الذي رأيته عندها بعشيق، ولا كانت تلك الرسائل التي رماها في النار رسائلها.
صاح مدهوشاً:
– ما هذا الذي تقولينه؟
– تلك الرسائل، يا روجر، كانت رسائلي أنا.
قال وقد تلبّك عليه الفهم:
– لم أفهم قصدكِ.
استطردت وهي تنظر إليه بعينين توارت فيهما سنون من الألم:

– إن الرجل الذي قتلته لم يكن عشيقها، بل كان... ولدي أنا.
شهق روجر قائلاً:
– ولدكِ؟
أجابت بَقسم يمزج بين الرصانة والدموع:
– أقسم بحياة ابنتنا لورانس أنني لم أنطق إلا بالحقيقة.
فصاح صيحة من أعماق صدره كأنها انفجار بركان:
– كل هذا حق! وها أنا أصدّقه، بل أقسم أنا الآخر بصحته! ويلٌ لي، لقد كنت أعمى، أعماني الغضب، فنسيت من عاشت معي ثمانية عشر عاماً ملؤها الحنان والإخلاص. كنت أعمى ومجنوناً، لم أبصر ولم أفهم، سفكت بيدي دماً بريئاً، وطردتُكِ من داري، وطلقتكِ ظلماً، وأنا الأحمق الذي لم يستحق أن يمتلك هذا الكنز، ولا قدّر قيمته.
هزّه اليأس فتابع:
–لم أقترف جريمة فحسب، بل فعلت ما هو أشنع... حرمت الأم من ابنتها، اختطفتها من صدرها الطاهر، آهٍ، كم كنت نذلاً، وغداً خسيساً!
ثم ما لبث أن صاح كمن وجد شعاع رجاء:
– لا يزال في الإمكان إصلاح شيء مما أفسدت.
وقد اندفع صوب حجرة ابنته ينادي بصوت مرتجف:
– بوليت، بوليت! تعالي، قبّلي أمك.
دخلت بوليت في لباس عرسها، شاردة الفكر، غارقة في بحر أحزانها، وقالت دون أن تنتبه لما قاله أبوها:
– أنتِ هنا يا أماه؟ كيف لي أن أراكِ الآن؟ أيُّ معجزة هذه؟
قال الكونت:
– أمك هذه يا بوليت هي مثال الشرف والعقل، فاطلبي عفوها، واسأليها أن تسامحني؛ فإني لا أملك الجرأة على التماس المغفرة منها بعد أن ظلمتها ظلماً عظيماً.
جلست دموعه على خديه، فاقتربت منه لورانس، ومدّت ذراعيها نحوه، وقالت بصوت يفيض بالحنان:
– عفا الله عمّا سلف يا روجر، دعنا ننسى الماضي، أما أنا... فلا أذكر منه إلا حبك. وما زلت أحبك كما كنتُ من قبل.
ضمها إلى صدره، وهو يلف ذراعه حول ابنتهما، بينما الدموع تغسل خطاياه، وتمسح الألم عن وجه الزمن.
وفي تلك الأثناء، انفتح باب المخدع، ودخلت كلوديا ومعها شقيقها، لم تسمع ما جرى، لكن لغط الأصوات أثار فضولها، فاقتحمت المكان لتفاجأ بالمشهد الذي كان أمامها. اجتاحها الغضب وقالت مشيرة بحدة:
– يا لكم من أنذال!
هبّ أنيبال لمساندة أخته قائلاً:
– أيها الكونت، كيف تجرؤ على إهانة أختي؟ ومن أذن لتلك المرأة بالدخول؟
لكن روجر انتفض، وصاح وهو يعانق لورانس:
– هذه السيدة تستحق كل إعجاب، كل تقدير، تستحق إعجابكِ أنتِ يا سيدتي، وإعجابك أيها السيد، بل إعجاب العالم بأسره!
فقالت كلوديا بلهجة ساخطة:
– إذا كنت ترى فيها هذا كله، فاذهب معها حيث تشاء، لكن فلتخرج من هنا، من بيتي، فأنا صاحبة الدار، وأنا أطردها منه.
انطلقت نحو الجرس لتستدعي الخدم، فاعترضها رجل بدا وكأنه خرج من الظلال، وقد كان السيد إيليا دراك، فحيّاها

بتحية ساخرة، ثم قال:
– أظنني سمعتكِ تأمرين بطرد والدة الآنسة بوليت من هذا البيت؟ أأطلب إليك أن توضحي لي بأي حق وبأي صفة تفعلين ذلك؟
فأجابت بثقة متعجرفة:
– ألا تعلم أنني زوجة صاحب هذا البيت؟
قال بابتسامة مريرة:
– زوجكِ؟ عفواً، عن مَن تتكلمين؟
– عن الكونت دي موري، الذي يقف أمامك.
– هوناً عليكِ، فالكونت دي موري من المحال أن يكون زوجاً لميتة. أما أنتِ، فقد دُفِنتِ منذ سنين، فهل نَسيتِ؟
خيم الصمت، وراح الجميع يتبادلون النظرات، وكأنهم يشهدون مسرحية جنون، إلا أنيبال، فقد ارتعد رعباً، أما كلوديا فضحكت بصوت مرتفع قائلة:
– هل جننت؟ أنا حية تُرزق، وسأثبت لك ذلك.
– يسعدني سماع ذلك، ولكنه يثير ذهولي، لأنني أحمل بين يدي شهادة رسمية بوفاتك منذ أعوام!
صاحت مذعورة:
– ما هذا الهراء؟
– هذه الحافظة تحوي شهادة بوفاتكِ، وأخرى بوفاة أخيكِ.
صاح روجر ولورانس معاً:
– ما معنى هذا؟!
أما أنيبال، فقد فهم الخديعة، وهمّ بالهرب، لكن السيد دراك أوقفه بنظرة قاطعة:
– على رسلك يا سيد بلميري... من يسير وقدماه في القبر، لا يسرع.
صاح أنيبال مذهولاً:
– قدماي في القبر؟!
– نعم، لقد فارقت الحياة في 24 يوليو عام 1856 بعد مرض حاد، ودفنوك على عجل خشية انتشار الوباء، ثم لحقت بك شقيقتك بداء مماثل، ودفنوها معك.
– أنت مجنون!
– بل أنت المختلس لهوية رجل وافته المنية، فارفق بنفسك.
صاحت كلوديا بنبرة متحدية:
– وأين دليلك؟ أرنا برهانك إن كنت صادقاً!
فأخرج من جيبه أوراقاً مستطرداً:
– هذه برقية من كلكتا، دُفِع فيها أكثر من خمسة آلاف فرنك، وهي تحوي نسخة مطابقة للسجلات الرسمية، وتثبت أنكما متوفيان منذ زمن، وأن اسمك الحقيقي يا آنسة كلوديا هو "جرجونة"، وأنك من بنات نابولي، أما زواجك من الكونت، ومن قبله زواجك الآخر، فكلاهما باطل.
قال الكونت وقد أظلمت عيناه:
– كنا إذاً ضحية خديعة ماكرة.
قال السيد دراك:
– سيتولى القانون عقابهما، وسأسعى إلى...
غير أن لورانس قاطعته قائلة:

– دعها، يا روجر، لقد دُعيت باسم الكونتيسة دي موري، فليكن هذا الاسم عذراً لها، ولو نالته زوراً.
– ولكنها السبب في شكي بكِ.
قال السيد دراك بصوت متزن ونظرة ثابتة: "ما دأبت يوماً على التدخل في شؤون الآخرين، ولو كنت فعلت، لقلت لك يا كونت ما قالته لك زوجتك الكونتيسة، فإنها أشارت عليك بالرشد، وأنت أبيت".
ثم ما لبث أن تأبط ذراع بيبو ليحول بينه وبين الفرار، وقال بصرامة خافتة:
– بيني وبين هذين العاشقين حساب لا بد من تصفيته.
قالت كلوديا بذهول: "حساب؟"
– نعم، حسابٌ قديم، إذ إن السيد أنيبال ملزم بإعادة ملايين السيد بلميري التي استولى عليها بغير حق.
قال أنيبال متحدياً: "لن أعيدها قط".
لكن السيد دراك لم يُعره اهتماماً، وأردف بنبرة قاطعة:
– بل ستعيدها، وإلا فالسجن المؤبّد مصيرك، فهذه الملايين آيلة إلى خزينة الدولة، ولا بد أن تُرد إليها.
ثم التفت إلى الآنسة جرجونة، وقد بان الحزم في عينيه، وقال وهو يناولها عقداً:
– وهذا عقد يجب أن توقعي عليه حالاً حتى يُلغى الزواج الزائف الذي عقدتِه مرتين بباطل.
وقبل أن تضع توقيعها على الورقة، التفتت جرجونة صوب الكونتيسة دي موري الحقيقية، فرأت روجر ممسكاً بيدها كما لو لم يعرف سواها زوجة، فرَقَّ قلبها وقالت للسيد دراك بصوت متهدج:
– وإن أنا وقّعت، فهل تأذن لي بأن أرحل بكرامتي؟
أجابها بابتسامة متفهمة: "ولكما، أنت وشقيقك، عشرة آلاف فرنك تكفيكما نفقات السفر".
فأمسكت القلم ووقعت اسمها: "جرجونة".
قال لها السيد الإنكليزي: "ألا يوجد لك اسم آخر؟"
فأجابته بثقة: "لا، هذا هو اسمي، وقد استعدته بعد طول اغتراب، فلا ندم على ما خسرته".
خرجت من البيت، وفي مساء ذلك اليوم ذاته، رحلت مع أخيها إلى إيطاليا، وقد صارا أغنى مما دخلا باريس، وعادا إلى سابق عهدهما في وطنهما، كأن ما جرى لم يكن إلا صفحة طويت في كتاب الحياة.
وما إن ابتعد المحتالان، وسار معهما السيد إيليا دراك لمحاسبتهما حتى نهض الكونت دي موري بخطى حازمة ودخل قاعة أخرى كانت قد عجت ببعض أصدقائه المدعوين ليشهدوا حفل الزفاف. دعاهم إلى الحضور، فنهضوا متسائلين، وتبعوه بفضول مشوب بالدهشة، وما كادوا يدخلون حتى وقع نظرهم على لورانس، مشرقة الوجه، متكئة على ذراعه بثقة وحنان.
وكان الأميرال أول الداخلين، فوقف حائراً وسأل بصوت خافت: "ما معنى هذا؟".
فأجابه روجر بصوت تألّق فيه مزيج من الحنين والندم: "معناه، أيها الأميرال، أيها السادة، أنني اليوم أستدرك خطأً جسيماً ارتكبته في حق نفسي قبل غيري".
وقد أشار إلى لورانس مردفاً:
– هذه السيدة النبيلة التي اتهمتها ظلماً وطردتها من حياتي يوماً، هي من أشرف النساء وأطهرهن قلباً وسريرة.
ثم أطرق رأسه لحظة واستطرد: "أشهد أمامكم جميعاً أنني ظلمتها، وخامرني الشك الآثم في طهارتها، ودفعتني همسات السفلة وأهل السوء إلى الدم والعار حتى أنني وضعت اسمها على لسان امرأة شقيّة، ومنحت تلك الدنيئة ما لا تستحق، ونزعت من لورانس ما كان لها حقاً.
ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال:
– لكن، لحسن الحظ، كان ذلك الزواج المزوَّر مفسوخاً، وقريباً سيصدر حكم رسمي بإبطاله، وقد أتاح لي القانون الجديد فرصة ثمينة لأعود حرّاً، إذ يجيز للأزواج المطلقين أن يجدّدوا رباطاً قُطع ظلماً، فكونوا أيها السادة شهوداً على ندمي، وعلى احترامي العميق لابنة الأميرال، لورانس دي لامارش، وعلى توسّلي إليها أن تعيد إليّ اسمها وحقوقها التي اغتصبتها بخطيئتي.

ثم انثنى نحوها، وقد طفرت من عينيها الدموع، وجثا أمامها مردفاَ:
– لورانس، هل تقبلين؟ هل تأذنين لي بأن أكفّر عن كل ما بدر مني بالإخلاص والحب مدى الحياة؟
فلم تجبه، بل فتحت ذراعيها له، ففهم الإجابة قبل أن تنطق.
لكن الأميرال، بصوت خفيض مفعم بالقلق، تساءل مدهوشاً: "ولكن كيف بُرّئت ابنتي؟ أين الدليل؟".
ارتعشت لورانس، ورفعت نظرها نحو والدتها، ثم تماسكت وقالت: "لا برهان لدي، يا للأسف... لكن عفو زوجي برّأني، وهذا يكفيني".
وهكذا حافظت لورانس مرة أخرى على سر والدتها، واحتفظت به في أعماقها.
وبعد حين، عاد الكونت دي موري إلى منصبه في بوندشيري، ترافقه أسرته، وفي تلك البقعة البعيدة، ووسط أجواء الفرح والمصالحة، زُفّ جاستون دي فالبير إلى الفتاة بوليت.
وفي صباح اليوم الموعود، وقف رجل أمام منزل بوليت بزيّ قنصل رسمي، وما إن لمحته حتى صاحت بفرح ودهشة: "السيد إيليا دراك!".
فأجابها مبتسماً: "نعم، بوليت، أنا هو".
– كيف وصلت إلى هنا؟
– ألم أعدك بأن أكون أحد شهود عرسك؟
– وعدتني، لكن ألا تمكث معنا أياماً؟
– لا، لن أرحل... لأنني سأمكث معكم دائماً، فقد أصبحت قنصل إنجلترا في هذه الديار.
كان حفل الزفاف مليئاً بالفرح والسرور، وعاش القوم في سعادة، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، كما هو الحال في قصص الحياة، حيث تظل الأحداث تتوالى رغم لحظات الفرح.